# مَعالِم الطَّريق الصُّوفيِّ
# عند أَبي بَكرٍ الكَتَانيِّ

## المتوفَّى سنة (٣٢٢هـ)

د. عرفه عبد الرحمن أحمد عبد الرحمن النَّادى
مدرِّس بقسم العقيدة والفلسفة
كلية أصول الدين – القاهرة
١٤٣٧هـ-٢٠١٥م

## مقدمة

**بسم الله الرحمن الرحيم**

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولىُّ الصالحين، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلِّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد،،،

فمنذ بدأتُ الاطلاع على بعض ما كُتب فى التصوف الإسلامى؛ ككتاب "إحياء علوم الدين، لحجة الإسلام أبى حامد الغزالى"؛ الذى يُعدُّ موسوعةً، عرَضَ فيها لمقامات: "الإسلام" و"الإيمان" و"الإحسان"، ومن خلاله تعرَّفتُ على بعض ما يتعلق بالتصوف الإسلامى؛ فكنتُ متطلعًا لمزيدٍ من البحث والدراسة فى التصوف وأعلامه.

ثم كانت دراستى لمادة التصوف الإسلامى، بكلية أصول الدين، فى الفرَق الدراسية الأربع، حتى انتهيتُ بمرحلة الدكتوراة، وخصصتُها للدراسات الصوفية أيضا، فزاد اطِّلاعى على هذه الدُّرر الصوفية، وتعلُّقى برجال التصوف.

ولفتَ نظرى: كثرةَ الادعاءات على التصوف والصوفية، واتهامهم: بمخالفة الشرع، وعدم الاهتمام بالعبادات، وترْك التكاليف الشرعية، وغير ذلك. كما لفت نظرى أيضا: عدم الاهتمام – بشكلٍ كافٍ – بأعلام التصوف، خاصة فى طبقاته الأولى، وإن كان بعض مشايخى بدأ بدايةً مشكورةً فى ذلك؛ فقدَّم "المرحوم الدكتور/ محمد فوقى حجاج" دراسةً عن بعض هؤلاء الأعلام؛ مثلَ: "الجُنَيد"، و"ذى النُّون المصرى"،

و"الغزالى"، "وأبى يزيد البسطامى"، و"الحلاج"، و"ابن عربى"(١).

فحاولتُ اقتفاء أثره فى ذلك؛ لأُبرِز أثرَ بعض أعلام الطبقات الأولى للصوفية، من خلال أقوالهم المتناثرة فى بُطون كتب الصوفية، والتى تُعدُّ دُررًا يجب كشف النقاب عنها؛ لِما لها من أثر على التصوف فيما بَعد؛ إذ أنها تؤكد أصالة التصوف فى الإسلام، ومطابقته للشرع، وتحقيقه لمقامات: "الإيمان" و"الإسلام" و"الإحسان".

ومن هؤلاء الأعلام: "الشيخ/ أبو بكر الكَتَّانِى، المتوفَّى سنة ٣٢٢هـ"؛ فقد اهتمَّ مؤرخو الصوفية وغيرِهم بأقواله والتعليق عليها – ويظهر هذا واضحا من العزو فى الهوامش داخل البحث -، وكذا وجدتُ اتفاق محققى التصوف المحْدَثين على ترجيح تعريفه للتصوف: بأنه "صفاء ومشاهدة" – على ما فصلتُ داخل البحث -، ومع ذلك لم أجد دراسةً – وافيةً، على قدر بحثى - تجمع أقواله المتناثرة فى بطون كتب التصوف، وتُبرز مكانته بين الصوفية؛ سيما وأنه معدود من الطبقة(٢) الرابعة، وصاحَبَ كثيرًا من المتقدمين فى الطريق؛ كـ "الجُنَيد" و"الخَرَّاز" وغيرِهما.

باستثناء ما قدمه "الأستاذ الدكتور/ جودة أبو اليزيد المهدى"؛ فقد

---

(١) طُبع الجزء الأول: بدار المطبوعات الدولية، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م. وطُبع لجزء الثانى: بدار الهدى للطباعة، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

(٢) الـ"طبقة": جماعة كانوا فى عصر واحد وأزمنة متقاربة. راجع: مقدمة كتاب: نفحات الأنس من حضرات القدس، لمولانا/ عبد الرحمن الجامى، صـ ٤، نشر: الأزهر الشريف، بدون تاريخ.

ترجم لـ"الإمام الكتانى"([1])، غير أنه لم يستوعب كلَّ أقواله وآرائه فى التصوف، وغالبا ما يسرد أقوال "الإمام الكتانى"، دون تناوُلها بالتحليل. ونفس الشىء فعلَه "الأستاذ الدكتور/ محمد جلال شرف"([2])، فقد ركَّز أثناء تعرضه للإمام الكتانى، على جانب واحد، هو: عرض رأى "الكتانى" فى "مراتب الأولياء" – على ما سأشير إليه فى موضعه. وعلى كلٍّ، فمحاولتهما مشكورة، غير أنها لَم توَفِّ البحث حول "الإمام الكتانى" حقَّه، وتركا كثيرا من أقواله – التى سردوها – دون توضيح مشكَلها وشرْح غامضها، كما أهملا جُلَّ أقواله؛ لِقلَّة المصادر التى اعتمدوها فى البحث.

ولا أزعم أنى وفَّيتُ هذا البحث حقَّه، بل اجتهدتُ قدر طاقتى فى سبيل تحقيق ذلك، راجيًا أن أكون مأجورًا منه – تعالى- على محاولتى هذه.

موضوعات البحث:

لقد تناولتُ فى هذا البحث الكلام على:

سيرة الإمام الكتانىّ؛ أى ترجمته، باختصار غير مخلٍّ.

ثم تطرقتُ إلى توضيح معالم الطريق الصوفى من خلال أقوال الإمام الكتانى، وتعرضتُ فيه للكلام على:

أوَّلا: تعريف التصوف عند الكتانى، وأهمية هذا التعريف عند المحققين.

---

([1]) وذلك فى كتابه: بحار الولاية المحمدية فى مناقب أعلام الصوفية، صـ ٣٥٧-٣٧٠، نشر: دار غريب- القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

([2]) وذلك فى كتابه: دراسات فى التصوف الإسلامى شخصيات ومذاهب، صـ ٣٤٧-٣٦٨، نشر: دار المعرفة الجامعية بالاسكندرية، ٢٠٠٤م.

ثانيا: بعض خصائص الصوفية التى ذكرها الإمام الكتانى.

ثالثا: إشارات الإمام الكتانى فى العقيدة. وتناولتُ فيه: إشارة للكتانى عن التوحيد، ووضَّحتُ معنى التوحيد عند الصوفية. وموقفهم من الاستدلال على وُجوده – تعالى-.

رابعا: موقف "الإمام الكتانى" من العِلم. وعرضتُ فيه: حثَّ الكتانى المريدَ على العلم. ورددتُ شبهة عدم اكتراث الكتانى بالحديث النبوى الشريف.

خامسا: أركان التصوف عند "الإمام الكتانى". وذكرتُ فيه: أقوال الكتانى وأفعاله التى تؤكد ضرورة التزام المريد بالسَّهر والجُوع والصَّمت والعُزلَة.

ثم ذكرتُ حثَّه على العمل وتحرِّى الإخلاصَ فيه.

سادسا: مراحل الطريق الصوفى عند "الإمام الكتانى"؛ وتناولت فيها الكلام على:

مجاهدة النفس. ثم تناولتُ ما وجدتُ له مادة علمية عند الكتانى؛ وهو ما يلى:

١- التوبة. ٢- الزهد. ٣- التوكل. ٤- الذِّكر. ٥- السَّماع.

سابعا: من ثمرات الطريق الصوفى عند الكتانى:

١- المعرفة. ٢- الولاية – ومراتب الأولياء عند "الإمام الكتانى". ومراتبُ الأولياء: هى أهم ما يميز الجانب الصوفىَّ عند الكتانى، وبسبب كلامه فى ذلك: اتُّهم التصوف بالتأثر بالشيعة؛ على ما وضَّحتُ فى موضعه.

ثم ذكرتُ: خاتمةً للبحث. وفهرسًا لأهم مصادر البحث ومراجعه.

وفهرسًا لموضوعاته.

واللهَ – تعالى- أسأل أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم.

**د. عرفه النادى**

## تَرجمة "الإمام الكتانى"

هـو(١): محمد بن علىّ بن جعفر، أبو بكر الكَتَّانِىّ؛ نِسبةً إلى الكَتان "بفتح الكاف" وعملِه(٢) ــ، البغدادىُّ، ثم المَكِّىُّ. قيل: إنه يُكنَى بـ"أبى عبد الله"(٣)، والصواب: أن كنيتَه: أبو بكر.

القُدوة، العارف، أحد الأئمة والسادة، كان من الأولياء، شيخ

---

(١) راجع فى ترجمته: الطبقات الصوفية، لأبى عبد الرحمن السلمى، تحقيق: د/ أحمد الشرباصى، صـ ١٢٨، كتاب الشعب، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م. وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهانى، جـ ١٣ صـ ٣٤٣، نشر: السعادة بمصر، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م. وتاريخ بغداد وذيوله، للخطيب البغدادى، ت: عبد القادر أحمد عطا، جـ ٣ صـ ٢٨٨، نشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ. وتذكرة الأولياء، لفريد الدين العطار، تصحيح: أحمد آرام، صـ ٥٠٨، بدون. وتاريخ دمشق، لأبى القاسم علىّ بن الحسن المعروف بابن عساكر، ت: عمرو بن غرامة العمروى، جـ ٥٤ صـ ٢٥١-٢٥٩، نشر: دار الفكر، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م. وسير أعلام النبلاء، لشمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد الذهبى، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، جـ ١٤ صـ ٤٢٣، نشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

(٢) انظر: الرسالة القشيرية، للقشيرى، مع إحكام الدلالة على تحرير الرسالة، لشيخ الإسلام زكريا الأنصارى، جـ ١ صـ ١٩٤، نشر: مكتبة الإيمان- بدون تاريخ. وطبقات الأولياء، لسراج الدين أبى حفص عمر بن الملقن، ت: نور الدين شريبة، صـ ١٤٤، مكتبة الخانجى بالقاهرة، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

(٣) وممن كنَّاه بـ«أبى عبد الله»: الكلاباذى، فى كتابه: التعرف لمذهب أهل التصوف، صـ ٤١، تقديم وتحقيق: محمود أمين النواوى، نشر: مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م. وانفرد "الشعرانى" بتكنيته بـ"أبى محمد"؛ وذلك فى كتابه: الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية، صـ ٥٧، ١٠١، نشر: دار جوامع الكلم، الطبعة الثالثة، بدون تاريخ.

الصوفية، «مِن أعلى الناس فى طبقات الصوفية»(١)، معدودٌ من الطبقة الرابعة.

مِن أجمع ما قيل عن مكانته بين الصوفية وعن أخلاقه:

إنه «كان – رحمه الله – شيخًا فى مكة – شرَّفها الله -، ومُرشدًا فى زمانه، وفى التقوى والورع والزهد والمعرفة: وحيدًا فى عصره. وهو من كبار المشايخ فى الحجاز. وله تصانيف فى علم الصوفية. وكان ذا تمكينٍ، وفى الولاية صاحبَ مقاماتٍ عاليةٍ وفِرَاسةٍ، وعاملا ومجاهِدًا، مرتاضًا كاملا فى أنواع العلُوم، ولاسيما فى علم الحقائق والمعارف»(٢).

وقال: «أبو جعفر الخياط الأصبهانى(٣): صَحِبتُه – أى الكتانىَّ – سِنين، فكان يزداد على الأيام ارتفاعًا وفى نفسه اتِّضاعًا»(٤).

وقال آخر(٥): «لَم أرَ فى الصوفية أعلمَ من "الشبلىِّ"(٦) ولا أتمَّ حالا من الكَتانى».

---

(١) مفيد العلوم ومبيد الهموم، لأبى بكر الخوارزمى، صـ ١٧٠، ١٧١، نشر: المكتبة العصرية- بيروت- ١٤١٨هـ. وانظر: سير أعلام النبلاء، جـ ١٤ صـ ٥٣٤، ٥٣٩.

(٢) تذكرة الأولياء، صـ ٥٠٨.

(٣) هو: جعفر بن محمد؛ صاحب أبى ثور الكلبى. راجع: تاريخ بغداد وذيوله، ج٧ ص٢٠٢.

(٤) حلية الأولياء، جـ ١٣ صـ ٣٥٨.

(٥) هو: أبو عبد "الله الرازى". انظر: تاريخ بغداد وذيوله، جـ ١٤ صـ ٣٩٤.

(٦) الشِّبلى: اختُلف فى اسمه؛ فقيل: دُلَف بن جَحدَر، وقيل: جعفر بن يونس، بغداديُّ المَولد والنشأة، صحبَ الجنيدَ وغيره، تفقَّه فى مذهب الإمام مالك، وكتبَ الحديثَ، توفى سنة (٣٣٤هـ). راجع فى ترجمته: صفة الصفوة، لجمال الدين أبى الفرج بن الجوزى، ت: أحمد ابن على، جـ ١ صـ ٥٤٠، نشر: دار الحديث بالقاهرة، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

وقال ثالث(١): «إنه كان من كبار شُيوخ الصوفية».

ويقول عنه الشيخ "أبو سعيد بن أبى الخير الميهنى(٢)": «كان أبو بكر الكتانى رجلا عظيمًا جدًّا، وكان ذا علمٍ ومجاهداتٍ كثيرةٍ، بحيث لم يبلُغ أحد درجتَه ...»(٣).

وبعض الأقوال السابقة صريح بأن له مؤلفاتٍ فى علوم القوم؛ ومما يقوّى ذلك: قول "الكلاباذى"(٤): «الباب الثالث: فيمن نشر علومَ الإشارة كُتبًا ورسائل»(٥)، وعدَّ منهم: الإمامَ الكتانىَّ، والظاهر أنها مفقودة؛ على قدر بحثى فى ذلك.

حَكَى الكتانى عن: "أبى حمزة محمد بن إبراهيم"(٦)، و"إبراهيم

---

(١) هو: ابن عساكر؛ فى تاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥١.

(٢) هو: محمد بن المنور بن أبى سعيد، كان موجودا سنة (٥٥١هـ)، كان مولَعا بجمع أخبار جده أبى سعيد، وألَّف كتاب "أسرار التوحيد" وأهداه إلى ملك الغور "غياث الدين محمد بن سام، ٥٥٨-٥٥٩م). راجع: تذكرة الأولياء، صـ ٧٤٩، ومقدمة كتابه: أسرار التوحيد، لإسعاد عبد الهادى قنديل، نشر: الدار المصرية للتأليف والترجمة، بدون تاريخ.

(٣) أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد، ترجمة: إسعاد عبد الهادى قنديل، صـ ٢٨٢.

(٤) هو: محمد بن إبراهيم بن يعقوب، البخارى، أبو بكر، من حُفاظ الحديث، من مؤلفاته: التعرف لمذهب أهل التصوف، وبحر الفوائد "فى الحديث"، توفى سنة (٣٨٠هـ-٩٩٠م). راجع فى ترجمته: الأعلام، لخير الدين بن محمود الزركلى، جـ ٥ صـ ٢٩٥، الطبعة الخامسة عشر، ٢٠٠٢م، نشر: دار العلم للملايين.

(٥) التعرف لمذهب أهل التصوف، صـ ٤١.

(٦) هو: محمد بن إبراهيم البغدادى البزَّار؛ كان عالما بالقراءات، وجالس الإمامَ أحمد بن حنبل، وكان ابن حنبل يقول له فى بعض المسائل: ما تقول فيها يا صوفى؟ توفى سنة (٢٨٩هـ). راجع: القشيرية، جـ ١ صـ ١٧٧، وحلية الأولياء، جـ ١٣ صـ ٣٢٠، وتاريخ بغداد ، جـ ١ صـ ٤٠٧. ومما حكاه عنه الكتانى: (لولا الغفلة، لمات الصدِّيقون من رَوح

الخوَّاص"(١)، و"أبى سعيد أحمد بن عيسى الخراز"(٢). وصاحَب "الخرازَ" فى سياحته إلى صيدا وطرابلس.

ومن أصحابه فى الطريق:

"الجنَيد"(٣)، و"الخرَّاز"، وأدرك "النوريَّ"(٤).

ومن تلاميذه ومريديه:

"جعفر الخُلدى"(١). وصحبَه: "أبو عبد الله بن الخفيف الشيرازى"، من

---

ذكر الله). حلية الأولياء، جـ ١٣ صـ ٣٢١، وانظر: نفحات الأنس، صـ ٢٢٩.

(١) هو: أبو إسحاق، إبراهيم بن أحمد، من أقران الجنيد، كان رأسا فى التوكل، انتفع به الطلاب، وارتفع قدرُه بين ذوى الألباب، توفى بالرى سنة (٢٩١هـ). راجع: القشيرية ونتائج الأفكار، جـ ١ صـ ١٧٤، ١٧٥، وتذكرة الأولياء، صـ ٤٢٩، ٥١٥.

(٢) هو: أحمد بن عيسى؛ بغدادى الأصل، ودخل مصر، وجاور بمكة. قيل فى سبب تلقيبه بـ"الخراز": إنه كان يخرز الخُفَّ ويفكُّه، فسُئل عن ذلك؟ فقال: أشغل نفسى قبل أن تشغلنى. وسُمِّى "لسان التصوف"، وله فيه أربعمائة تصنيف، وهو أول من تكلم فى الفناء والبقاء. توفى سنة (٢٨٦هـ) تقريبا. راجع: نفحات الأنس، صـ ٢٣٤، نشر: الأزهر، وتذكرة الأولياء، صـ ٤٦٠. وأثبت "الجامى" فى "النفحات"، (صـ ٢٤١): مكاتبةً من "أبى بكر الكتانى" إلى "الخراز"، وردَّ "الخراز" عليها. وقطع محقق "النفحات": أنها كانت من "أبى العباس الأدمى: ابن عطاء"، إلى الخراز، كما نقل عن "اللمع، للطوسى"، وعن "طبقات الشعرانى".

(٣) هو: أبو القاسم، الجنَيد بن محمد بن الجنيد النهاوندى، البغدادى، القواريرى؛ شيخ الطائفة، صحب خالَه "السرىَّ السقَطى" و"الحارث المحاسبى" و"محمد القصاب" و"أبا حمزة البغدادى". لَم يُر فى زمانه مثله عفةً وعُزوفًا عن الدنيا، توفى سنة (٢٩٧هـ). راجع فى ترجمته: القشيرية ونتائج الأفكار، جـ ١ صـ ١٤٣، وسير أعلام النبلاء، جـ ١٤ صـ ٦٦.

(٤) هو: أحمد بن محمد الخراسانى؛ بغدادىُّ المولد والنشأة، شيخ الطائفة بالعراق؛ كان كبيرَ الشأن، حسَن المعاملة، توفى سنة (٢٩٥هـ). راجع: القشيرية، جـ ١ صـ ١٤٩، صفة الصفوة، جـ ١ صـ ٥٣٠، نفحات الأنس، صـ ٢٥٢، وسير، جـ ١٤ صـ ٧٠.

الطبقة الخامسة، شيخ المشايخ فى وقته[٢]. و"أبو الحسن السِّيروانى الصغير"، من الطبقة السادسة[٣]. و"عبيد الله بن إبراهيم الوراق"، و"أبو بكر محمد بن علىّ التكريتى"، و"أبو القاسم البصرى"[٤].

وذكر "الجامىُّ" ترجمةً لـ"فاطمة، بنت الإمام الكتانى"؛ فقال:

«فاطمة بنت أبى بكر الكتانى – رحمها الله تعالى- هى كانت فى مجلس "سمنون المُحب"[٥]، فلما تكلم "سمنون" فى المَحبة وسمعَته،

---

(١) هو: أبو محمد جعفر بن محمد بن نصير الخواص؛ بغدادىُّ المولد والنشأة، عُرف بصحبة الجنيد، وصحب النوريَّ ورويمًا وسمنون، كان من رُواة الأحاديث، توفى سنة (٣٤٨هـ). راجع: الطبقات الصوفية، صـ ١٤٨، وتذكرة الأولياء، صـ ٧٠٨.

(٢) نفحات الأنس، جـ ١ صـ ٣٤٥. وأبو عبد الله بن الخفيف الشيرازى: هو محمد بن خفيف الضَّبى الشيرازى الشافعى؛ كان من بنى أكابر الأمراء، ثم تصوَّف، فكان شيخَ الوقت، وأسندَ الحديثَ، وبلغ ما لم يبلغه أحد فى العلم والجاه، أخذ عنه القاضى الباقلانى، توفى سنة (٣٧١هـ). راجع: القشيرية وإحكام الدلالة، جـ ٢ صـ ٦، وتذكرة الأولياء، صـ ٦٦١.

(٣) السيروانى الصغير: هو أبو الحسين على بن جعفر؛ شيخ الحرَم، حدَّث عن إبراهيم الخواص، والشبليِّ. وحدَّث عنه: أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن الرازى. توفى بمكة سنة (٣٩٦هـ)، وقيل: إنه عمّر مائة وإحدى وأربعين سنة. راجع: توضيح المشتبه فى ضبط أسماء الرواة، لابن ناصر الدين الدمشقى، ت: حمد العرقسوسى، جـ ٥ صـ ٢٤١، نشر: مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

(٤) انظر عن شيوخ الكتانى وتلامذته: تاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥١.

(٥) هو: سمنون – بضم السين على المشهور – بن حمزة، كنيته: أبو الحسن، الخواص، ويقال: أبو القاسم، البصرى، ثم البغدادى. كان مشهورا بالمحبة والهيَمان، ولَقب نفسَه بـ"الكذاب"، توفى سنة (٢٩٨هـ). انظر: القشيرية، جـ ١ صـ ١٥٩، و نفحات الأنس، صـ ٣٣٠، وحلية الأولياء، جـ ١٣ صـ ٣٤٣.

صاحت وخرَّت وماتت، ومعها ثلاثة نفر من الرجال أيضا ماتوا»[1].

ولم أقِف على ذِكرٍ لها عند أحدٍ غيرَ "الجامى".

**وفاته:**

قيل: إن بصرَ "الإمام الكتانى" قد كُفَّ فى آخر عمره، ولم يكن بالقويِّ فى صحته. وتُوفى سنة (اثنتَين وعشرين وثلاثمائة)، بمكة، بعد أن جاور بالحرم سنين، ومُكِّن من خدمة المقام الأمين؛ أى مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام[2].

---

(1) نفحات الأنس، جـ ١ صـ ٨٢٥.

(2) الطبقات الصوفية، صـ ١٢٨، وحلية الأولياء، جـ ١٣ صـ ٣٤٣، وتاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٩، وتاريخ بغداد وذيوله، جـ ٣ صـ ٢٩٠، والوافى بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى، ت: أحمد الأناؤوط، وتركى مصطفى، جـ ٤ صـ ٨٣، نشر: دار إحياء التراث- بيروت، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م. وحكى الذهبىُّ - بصيغة التمريض - فى تاريخ وفاته قولا آخر؛ فقال: «ويقال: توفى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة». سير أعلام النبلاء، جـ ١٤ صـ ٥٣٥.

## أوَّلا: تعريف التصوف عند الإمام الكتانى

ليس جديدًا أن تعريف التصوف – اللغوى أو الاصطلاحى- كان مثارَ جدلٍ وخلاف طويل، وربما يظن البعض: قلةَ جدوَى البحث في الأصل اللغويّ للكلمة. والصواب: أن البحث فيه يحدد اتجاه صاحبه، ويُبرز أصالة التصوف فى الإسلام.

واشتهر الخلاف فى الأصل اللغويّ الذى اشتُق منه لفظ (تصوف)، وأشهر الآراء فى ذلك: أنه مشتقٌّ من الصُّوف. وقيل: من الصفاء. وقيل: من صوفانة: نبات رَخو. وقيل: من صوفة: رجُل كان يخدم الكعبة. وقيل: نسبة لأهل الصُّفة. وقيل: من الصِفَة؛ أى الصفة الحسَنة. وقيل: من الصفِّ الأول. وقيل: من سوفيا(١).

و"الإمام الكتانىُّ" ممن تكلم فى تعريف التصوف، بل اشتهر تعريفه للتصوف ورُجِّح عند بعض المحققين – كما سيأتى-.

أما رأيه فى الاشتقاق اللغويّ للَفظَة (تصوف): فلَم يذكره صراحةً، لكن يمكن استنتاجه من تعريفه الاصطلاحيّ للتصوف، فقد نُسب إليه تعريف التصوف: بأنه **(الصَّفوَة والمُشاهَدة)**(٢)، ونَقل بعض محقِّقى الصوفية المعاصرين(٣): أن تعريف "صاحب تذكرة الأولياء" الذى نقله

---

(١) راجع فى ذلك بالتفصيل: الرسالة القشيرية مع إحكام الدلالة ونتائج الأفكار، جـ ٤ صـ ٢ وما بعدها، وعلم التصوف، للمرحوم الدكتور/ محمد مصطفى، صـ ٢٢ وما بعدها، نشر: مكتبة الفتح بدمياط، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.

(٢) تذكرة الأولياء، صـ ٥١٣.

(٣) هو: الدكتور/ عبد الحليم محمود، فى: أبحاث في التصوف، (مع المنقذ من الضلال، للإمام/ الغزالى)، صـ ٢، نشر: دار الكتب الحديثة، الطبعة الثامنة، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

عن الكتانى: أن (التصوف: صفاء ومشاهدة)، ورُجِّح هذا التعريف على مئات التعاريف – كما سيأتى-.

وهذا التعريف: صريح فى أنه يميل إلى اشتقاق لفظة (تصوف) من مادة (الصفاء، والصفوة)، وهو رأىٌ تبعَه بعض محققى الصوفية، فيقول أحدهم(١): «واختُلف في اشتقاق التصوف على أقوال كثيرة؛ أحسنها: أنه من الصفا؛ لأن مدارَه على التصفية»، ويقول آخر(٢): «فأما التصوف: فاشتقاقه عند أهل الإشارات والمُنْبِئين عنه بالعبارات: من الصفاء والوفاء، واشتقاقه من حيث الحقائق - التي أوجبت اللغة –: فإنه تفعُّل: من أحد أربعة أشياء...»، وهذا يعنى: أنه وإن لم يكن على قاعدة الاشتقاق، فإن المراد: مطلق الأخذ لمراعاة المعنى فقط، فمن اعترض بعدم موافقة هذا للاشتقاق اللغوى؛ مستندا إلى أن النسبة إلى "الصفاء": "صفائىٌّ"، أو

---

وعزاه الدكتور/ محمد مصطفى، إلى كتاب: تذكرة الأولياء، ص٢، وذلك فى كتابه: علم التصوف، ص٣٧. ولعلهما اطَّلعا على نسخة مغايِرة من التذكرة للعطار؛ سيما أنى رجعتُ إلى نسخة حديثة محققة مقابلة على نسخة أخرى، طُبعت بعد وفاتهما، وأيضا صرَّح الدكتور محمد مصطفى: بأنه اعتمد «فى تعريفات التذكرة: علَى نيكلسون وعفيفى». علم التصوف، ص٢٣.

(١) هو: الشيخ "أحمد بن محمد بن عجيبة"؛ فى كتابه: الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية، ت: عبد الرحمن حسن محمود، صـ ٢٢، نشر: عالم الفكر، بدون تاريخ. وانظر: التعرف، صـ ٢٦، كشف المحجوب، جـ ١ صـ ٢٢٧، دراسة وترجمة وتعليق: د/ إسعاد عبد الهادي قنديل، نشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

(٢) هو: أبو نعيم الأصبهانى؛ فى: حلية الأولياء، جـ ١ صـ ١٧، وهذا الترجيح: هو رأى أبى الحسن الشاذلى أيضا. انظر: لطائف المنن في مناقب الشيخ أبى العباس المرسى وشيخه الشاذلى أبو الحسن، للشيخ/ تاج الدين بن عطاء الله السكندرى، صـ ١٤٥، المكتبة السعيدية بدرب الجماميز، الطبعة الأولى، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.

"صفاوىٌّ"، أو "صفوىٌّ". نقول له: إن الكلمة – تصوُّف - مأخوذة من أصلٍ عربيٍّ؛ وهو "الصفاء"، وحدث قلبٌ مكانىٌّ للتخفيف؛ بنقل الفاء مكان الواو، فقيل: صوفىٌّ، بدل: صفوىّ، وهذا يناسب المعنى الاصطلاحى.

أما التعريف الاصطلاحى للتصوف:

فقد ذكر البعض(١): أن تعاريفه تبلغ نحو ألف أو ألفَىْ تعريف، لكن التحقيق: أن إطلاق لفظة (تعريفات) عليها، مما يُوهِم أن المذكور حدٌّ أو رسم للتصوف، إنما هو على سبيل المسامحة، والصواب: «أنها وُجوهٌ فيه»(٢)، فأكثرها لا يمثل حدًّا للتصوف ولا رسمًا، وإذا كنتُ قد رجحتُ أن الأقرب إلى كلام الكتانى: أنه يرى اشتقاقَه من "الصفاء"، فهذا يعنى: ربطه للتعريف اللغويِّ بالأخلاق؛ ونفس الربط نراه في تعريفه الاصطلاحي، فقد اشتهر تعريف "الكتانى" للتصوف بقوله:

**(التصوُّف خُلُقٌ، مَن زاد عليك فى الخلُق فقد زاد عليك فى التصوف)(٣).** ووُصف هذا التعبير: بأنه «خير تعبير»(١). وشُرح: بأنه

---

(١) هو: تاج الدين عبد الوهاب السبكى؛ فى كتابه: طبقات الشافعية الكبرى، ت: د/ محمود الطناحى، د/ عبد الفتاح الحلو، ج٥ ص١٤٠، نشر: هجر للطباعة والنشر، الطبعة الثانية. ١٤١٣هـ. وانظر: عوارف المعارف، لشهاب الدين السهروردى، ص٧٩، نشر: دار الكتب العلمية، مع كتاب: إحياء علوم الدين، جـ ٥. قواعد التصوف، صـ ٣، وانظر فى تصنيف التعريفات المذكورة مع التحليل الدقيق: علم التصوف، د/ محمد مصطفى، صـ ٢٢-٣٨.

(٢) قواعد التصوف، صـ ٣، وانظر: عوارف المعارف، صـ ٨١-٨٢.

(٣) الرسالة القشيرية، جـ ٣ صـ ١٨٦، جـ ٤ صـ ٧، وعوارف المعارف، صـ ١٧٦، وتاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٦، وتاريخ بغداد وذيوله، جـ ٣ صـ ٢٨٨، وسير أعلام النبلاء، جـ ١٤ صـ ٥٣٤. ومع اتفاق الكل على نسبة هذا التعريف إلى الكتانى، فقد

«إسبال الخُلُق على الخَلْق»[٢]؛ لأن حُسن الخلُق دلالة على سعة قلب صاحبه، وكرم نفسه، وهذا يثمر: كفَّ الأذى عن الخلق، وتحمُّل إيذاءهم، وبَسط الراحة، وهذا كله ناتج عن الانقطاع عن حُظوظ النفس. وعليه: فـ"الإمام الكتانىُّ" يردُّ تعريف التصوف إلى الأخلاق الحسَنة.

واعتُرض على ذلك: بأن الخُلق الحسَن وإن كان ذا أهمية بالغة فى الطريق، لكنه من وسائل تحقيق التصفية أو الصفاء، فهو وسيلة إلى غاية، وليس تعريفًا؛ فكَم من صاحب خُلقٍ كريم لا يسمَّى صوفيًّا[٣].

وبعض المحققين يرى: أن التعريف المختار للتصوف: تعريف آخر لـ"الإمام الكتانى": بأنه **«صفـاءٌ، ومُـشاهَـدةٌ»**[٤]؛ فهو مشتملٌ على وسيلة التصوف؛ وهى: الصفاء، ومشتملٌ على الغاية من التصوف؛ وهى: المشاهدة، لذلك وُصف هذا التعريف: بأنه «الأجمعُ والأدقُّ»[٥]؛ فصفاء السر، وعلُو الرتبة، وشرَف المقام؛ باعثٌ لصاحبه على الاجتهاد فى

---

خالفهم "الهجويرى"؛ فنَسبَه إلى (محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب). انظر: كشف المحجوب، جـ ١ صـ ٢٣٤. مع ملاحظة: إهمال الهجويرى لذكر ترجمة الكتانى ضمن مشايخ الصوفية، الذين ذكرَهم فى: جـ ١ صـ ٢٦٧-٣٩٢، مع أنه ذكر كثيرا من معاصريه وبعض تلامذته! ونقل عنه بعض أقواله، كما عزوتُ فى بعض هوامش هذا البحث.

(١) علم التصوف، صـ ٢٥، وانظر: تذكرة الأولياء، صـ ٤٧٣.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية، تحقيق: عماد عامر، جـ ١ صـ ٤١٢، نشر: دار الحديث بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

(٣) انظر: علم التصوف، صـ ٢٦.

(٤) انظر: أبحاث في التصوف، صـ ١٨٢، ١٨٦، فى علم التصوف، صـ ٣٤-٣٧.

(٥) علم التصوف، صـ ٣٧.

العبادات، وإخلاص العمل، يقول "الكلاباذى": «ومن كان أصفى سرًّا، وأعلى رتبةً، وأشرف مقامًا؛ فإنه أشدُّ اجتهادًا، وأخلص عملا، وأكثر توقِّيا»(١)، وهذا موافق لرأى "الإمام الكتانى"، الذى يدعو إلى الاجتهاد فى العمل والعبادة.

وألاحظ على تعريفَى الكتانى: اشتمالهما صراحةً على الجانب الخُلقى، واشتمال الثانى صراحة والأول ضمنًا على: الصفاء؛ الذى هو لُبُّ التصوف، و«نصف الطريق»(٢)، وحوله دار الكثير من كلام الصوفية؛ فـ«الصوفى: هو الذى يكون دائمَ التصفية؛ لا يزال يُصفِّى الأوقات من شَوب الأكدار بتصفية القلب عن شوب النفس»(٣)، و«القلوب كلما كانت أصفى من العُيوب، كانت أقوى إدراكًا للغُيوب والنور»(٤)، وعند القوم: «إذا لم يكن قلب المريد(٥) شفَّافًا؛ أى صافيًا من الكدورات: لا يظهر لفتيلة قلبه نور، ولو عمل بجميع أعمال الصالحين»(٦).

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف، صـ ٧٤.

(٢) علم التصوف، صـ ٢٨، وانظره، صـ ٧١، وإحكام الدلالة، جـ ٣ صـ ١٨٦.

(٣) عوارف المعارف، صـ ٨١.

(٤) إحكام الدلالة، جـ ١ صـ ١٣٤.

(٥) "المبتدىء" عند الصوفية: هو المستعدُّ للتأدُّب بالخدمة والقبول مِن الذى يعرف الحالَ. و"المريد": هو «الذى صحَّ له الابتداء، وقد دخل فى جملة المنقطعين إلى الله – تعالى- بالاسم، وشهد له قلوب الصادقين بصحة إرادته، ولَم يترسَّم بعدُ بحال ولا مقام، فهو فى السير مع إرادته». اللمع، للسراج الطوسى، ت: د/ عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقى سرور، صـ ٤١٧، ٤١٨، دار الكتب الحديثة بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد، ١٣٨٠هـ- ١٩٦٠م. وانظر: الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية، صـ ٩٠.

(٦) الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية، صـ ٧٥.

## ثانيا: بعض خصائص الصُّوفية التى ذكرَها "الإمام الكتانى"

إذا كان الإمام الكتانىُّ يذكر ما سبق كتعريفٍ مباشرٍ للتصوف، فيمكن أن نستشفَّ وجوهًا أخرى للتصوف، وصِفاتٍ للصوفية، من بعض أقواله المنسوبة إليه فى وصفه للصوفية؛ كقوله:

**(الصُّوفيةُ عَبيد الظَّواهر، أحرارُ البَواطن)**(١).

فهو يعنى: ضرورة التمسك بظاهر التصوف، وعدمَ إتعاب النفس فى استكناه حقيقته؛ لأن ذلك مُفسدٌ له. ومما يؤكد صحة ما ذكرتُ: أنه سُئل: **(ما التصوف؟ قال: أدناه لا تُدركُه»**(٢).

ثم عقَّب "الجامىُّ" على كلام الكتانى قائلا: «وسأل واحد "أبا حفصٍ": مَن الصوفىُّ" قال: الصوفىُّ لا يَسأل مَن الصوفى». ثم قال "الجامى": «هذا العلم سرُّ الله، [وهؤلاء] القوم أصحاب الأسرار، فالحرميّين – وهم من خارج حمى المِلك - ينبغى لهم ألا يَسألوا عن أسرار الملوك. وأصل هذا العلم: وجدانىٌّ، لا إدراكىٌّ، ولا يحصل هذا العلم لِمن طلبه بالإنكار ولا بالجهل، بل برعاية الحرمة والأدب، فسؤال السائل عن هذا العلم: من الإنكار، ومَن شمَّ رائحةً من هذا العلم فما له بالسؤال، فلا ينكر؛ لأن الإنكار شؤم، والمنكِر محروم، فقومٌ مشغولون بهذا العلم، وقوم مشغولون عن هذا العلم، وقوم مشغولون بالإنكار؛ فالمشغول عن هذا

---

(١) الطبقات الصوفية، للسلمى، صـ ١٢٩، الكواكب الدرية فى طبقات السادة الصوفية = طبقات المناوى الكبرى، للشيخ الإمام/ عبد الرءوف المناوى، حققها وقدم لها وعلق حواشيها: د/ عبد الحميد صالح حمدان، ج١ ص٥٩٧، نشر: المكتبة الأزهرية للتراث، بدون تاريخ.

(٢) نفحات الأنس، للجامى، جـ ١ صـ ٢٦٥. وانظر: علم التصوف، صـ ٣٦.

العلم: مغرور، والمنكِر له: مردود، والمستغرِق فيه: مستغرق فى النور»[1].

وسُئل "الإمام الكتانى" عن الصوفيّ؟ فقال:

**(مَن عزفَت نفسُه عن الدنيا [تطرُّفًا]، وعلَت هِمَّته عن الآخرة، و[سَخَت] نفسُه بالكل، طلبًا وشوقًا إلى مَن له الكل)[2].**

ففى هذا القول: جمعٌ بين الزهد والشوق والتطلع إلى الحقيقة العليا. غير أن الزهد: جانب هامٌّ من التصوف، وليس تعريفا له، بل للزهد تعريف غير تعريف التصوف[3].

وقال "الإمام الكتانى" أيضا:

**(الصُّوفىُّ: مَن تكون طاعتُه فى نظره كجنايةٍ؛ يَحتاج إلى الاستغفار لها)[4].**

فهذا تعريف ينظر إلى ضرورة ترك التكلُّف والاهتمام بالشكليات، والابتعاد عن غفلة القلب، وهى صفة أو شرط فى الطريق الصوفى، وليست تعريفا[5].

وقوله هذا: قريب مما نُسب إلى بعض الصوفية فى قوله: (استغفارُنا يحتاج إلى استغفار)[6]، فهذا القول: ذمٌّ لغفلة القلب حال الاستغفار، وليس

---

(1) نفحات الأنس، للجامى، جـ ١ صـ ٢٦٥.

(2) الطبقات الصوفية، للسلمى، صـ ١٣٠، وفيها "تظرفا" – بالظاء-.

(3) انظر: علم التصوف، صـ ٢٤.

(4) تذكرة الأولياء، صـ ٥١٣.

(5) انظر: علم التصوف، صـ ٣٥.

(6) نُسب هذا القول: إلى "رابعة العدوية". انظر: إحياء علوم الدين، للإمام الغزالى، جـ ١ صـ ٥١، دار الكتب العلمية- بيروت، بدون تاريخ. وعبارة "السهروردى": (أستغفر الله

ذمًّا لمجرد نُطق اللسان بالاستغفار – كما قد يُتبادر منه -، بل لو أعرض اللسانُ عن الاستغفار: لـ «احتاج إلى استغفارَين، لا إلى استغفار واحد»(١).

## ثالثًا: إشارات الإمام الكَتانى فى العَقيدَة

ترجع أهمية الكلام على العقيدة فى هذا المقام: إلى أن مريدَ سلوك طريق التصوف، يجب عليه أن يبدأ أوَّلا: «بتصحيح عقيدته؛ بالنظر فى أدلة علم الكلام العقلية والسمعية، حتى يَعلم ما يجب للحق – تعالى- وما يجوز وما يستحيل، وكذا ما يجب مثله فى حق الرسل - عليهم الصلاة والسلام -»(٢).

وللإمام الكتانيّ إشارات عاليةٍ، تتعلق بالعقائد، تُنبىءُ عن رُسوخ قَدمه فى الطريق؛ منها قوله:

**(أُنزِّهُكَ عمَّا وحَّدك بـه المُوحِّدُون)(٣).**

قلتُ: وهذا قريبٌ من قول القائل(٤):

ما وَحَّد الواحدَ مِن واحدٍ  إذ كلُّ مَن وحَّده جاحد

فمَن لم يكُن على درايةٍ – كافيةٍ - بحقائق القوم واصطلاحاتهم، وقع

---

العظيم من قلَّة صدقى فى قولى أستغفر الله). عوارف المعارف، صـ ٣٠٩.

(١) إحياء علوم الدين، جـ ٤ صـ ٥١.

(٢) نتائج الأفكار القدسية، جـ ٤ صـ ٢٠٤. وأيضا ذكَر العلامة الشيخ الدردير: أن التصوف مرتَّب على العقائد؛ إذ لا يمكن السَّير إليه – تعالى- إلا بعد معرفة العقائد. راجع: شرح الدردير على الخريدة بحاشية الشيخ بخيت، صـ ١٨١، دار البصائر، بدون تاريخ.

(٣) تاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٨.

(٤) هو: الهروى. انظر: مدارج السالكين، جـ ٣ صـ ٤٧٣.

فيهم حتمًا؛ بسبب هذه الأقوال وما شابهها؛ لأن مرادهم هنا:

أن التوحيد: عند الصوفية هو "الإسقاطَ، والإثباتَ"؛ بمعنى: (إسقاط الحُدوث، وإثبات القِدَم)(١)، فهو فناء العبد عن حظوظه وبقاء الحق– تعالى-، وإثبات وجودٍ آخر، يعنى عندهم: عدم تحقُّق التوحيد؛ لعدم بقاء ذات الحق – تعالى- وحْدها.

يوضح ذلك قولهم: الموحِّد: لابد أن يكون «فانيًا عن نفسه فى توحيده؛ بمعنى أنه فنىَ عن رؤية نفسه والخلق»(٢)، وقولهم: علامة حقيقة التوحيد: «أن ينسى العبد رؤيةَ توحيده فى توحيده؛ برؤية قيام الله ﷻ له بذلك قبل خلقه»(٣)، فيتجرد قلبُه بكمال استغراقه بالله، فيشتغل به لا بغيره، «فإنْ كمل شغله به بحيث نسى نفسَه مع غيره ماعدا اللهَ، فقد بلغ نهاية مقام التوحيد»(٤).

ونقل "ابن خلدون" تحقيق ذلك عن أحد مشايخه(٥)؛ فقال:

«إن معنى التوحيد عندهم: انتفاءُ عين الحدوث؛ بثبوت عَين القِدم، وقالوا: إن الوجود كلَّه حقيقةٌ واحدة وأنية واحدة،... ويرَون: أن وقوع التعدد فى تلك الحقيقة: وجودُ الاثنينية، وهُم باعتبار حضرات الحس:

---

(١) انظر: اللمع، للطوسى، ص٥٠-٥٥. والقشيرية ونتائج الأفكار، جـ ١ صـ ٤١، ٤٥، جـ ٤ صـ ٣٩، ٤٣، والتعرف، للكلاباذى، صـ ١٥٨-١٦٠.

(٢) إحياء علوم الدين، جـ ٤ صـ ٢٦٢. وانظر: التعرف لمذهب أهل التصوف، صـ ١٦٠، وإحكام الدلالة ونتائج الأفكار القدسية، جـ ١ صـ ٣٩-٥١، ٥٤، ٥٥.

(٣) اللمع، صـ ٥٥. ومعنى كلامه هذا: أن يكْمُل اشتغال العبد بمولاه – تعالى-، حتى يَنتج عن كمال اشتغاله بمولاه: ألا يشعر بما سواه. وانظر: تذكرة الأولياء، صـ ٤٩٤، ٥٤٦.

(٤) إحكام الدلالة، جـ ٤ صـ ٥٠، وانظر: مدارج السالكين، جـ ٣ صـ ٤٧٣ وما بعدها.

(٥) نقله عن شيخه الأندلسى: (أبى مهدى عيسى بن الزيات).

بمنزلة صوَر [الظِّلال][1] والصدأ والمرأَى، وأن كل ما سوى عين القدم إذا استتبع فهو عدم،... قالوا: فمَن وحَّد ونعتَ: فقد قال بموجِد محدِثٍ؛ هو: نفسُه، وموجَدٍ محدَثٍ؛ هو: فِعله، وموجِد قديم؛ هو: معبود، وقد تقدم: [أن] معنى[2] التوحيد: انتفاءُ عين الحدوث، وعين الحدوث الآن ثابتة، بل متعددة، والتوحيد مجحود، والدعوى كاذبة؛ كمن يقول لغيره وهُما معًا فى بيتٍ واحدٍ: "ليس فى البيت غيرك"، فيقول الآخر بلسان حاله: "لا يصحُّ هذا إلا لو عُدمتَ أنت"»[3]. وبالمثال المذكور: اتضح الكلام.

ومن الإشارات الصوفية العقَدية للكتانى: قوله:

**(وجُودُ العطاء من الحق: شهودُ الحقِّ بالحقِّ؛ لأن الحقَّ دليلٌ على كل شىء، ولا يكون شىء دونه دليلا عليه)[4]:**

وفى هذه الإشارة: حديثٌ عن **"الشُّهود"** عند الصوفية، ويأتى الكلام على "الشهود" فى موضعه؛ عند الكلام على (المعرفة).

ثم كلامه هنا يدفع إلى التساؤل: هل وجودُه – تعالى- نظرىٌّ؛ أى يحتاج إلى دليل؟ أم ضرورِىٌّ فى الإنسان؟

والجواب: أنه قيل بكلٍّ منهما؛ فالقائل بأنه نظرىٌّ: يستدلُّ: بأنه لو كان ضروريًّا لمَا وُجد مَن ينكره أو يشكِّك فيه، فالقرآن يحكى عن المنكِرين قولَهم: ﴿ **مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ** ﴾

---

(1) فى (الأصل): (الضلال)، وهو خطأ. وانظر: كشف المحجوب، جـ ١ صـ ٣٦٩.

(2) فى (الأصل): (وقد تقدم معنى). وانظر: تذكرة الأولياء، صـ ٤٨٦، ٤٩٤، ٦٩١.

(3) المقدمة، لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ت: د/ على عبد الواحد وافى، جـ ٣ صـ ٩٩٩، ١٠٠٠، نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ودار نهضة مصر، ٢٠٠٦م.

(4) الطبقات الصوفية، للسلمى، صـ ١٢٩، وحلية الأولياء، جـ ١٣ صـ ٣٥٨.

[سورة الجاثية: ٢٤][1]، وأيضا لو كان ضروريًّا لما اختلف فيه أحد، ولَما انقسم العلماء فى هذه المسألة إلى فريقَين[2].

والفريق الثانى – القائل بفطريته -: يرى أن الرُّسل لم يأتوا لإثبات وجوده –تعالى-، بل لتوحيده؛ مستدلين بآيات؛ كقوله - تعالى-: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [سورة العنكبوت: ٦١]، أما الصوفىُّ فيقول فى مناجاته: «كيف يُستدل عليك بما هو فى وجودك مفتقرٌ إليك،... متى غِبتَ حتى تحتاجَ إلى دليل يدل عليك!... كيف يُعرف بالمعارف من به عُرفت المعارف!... أرباب الدليل والبرهان عمومٌ عند أهل الشهود والعيان؛ لأن أهل الشهود والعيان قدَّسوا الحقَّ فى ظهوره عن أن يحتاج إلى دليل يدل عليه، كيف يحتاج إلى دليلٍ مَن نصَب الدليل!...»[3].

ويعقِّب "الدكتور/ عبد الحليم محمود" - مؤيّدا هذا الاتجاه - بقوله: «إن محاولة الاستدلال على وجود الله محاولةٌ خاطئةٌ»[4].

## رابعًا: مَوقفُ الكَتانى من العِلْم

لقد صرَّح الصوفية: بأن علومَهم لا تُنال إلا بعد تصحيح الأعمال،

---

(1) انظر: عقيدتنا، للأستاذ الدكتور/ محمد ربيع جوهرى، جـ ١ صـ ٦٨، الطبعة العاشرة، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

(2) انظر: السابق نفسه، جـ ١ صـ ٦٧-٧٠.

(3) الإسلام والعقل، للمرحوم الدكتور/ عبد الحليم محمود، صـ ٩٦، ٩٧، دار المعارف، الطبعة الرابعة، بدون تاريخ، وانظر: التعرف لمذهب أهل التصوف، صـ ٧٦-٧٩، وكشف المحجوب، جـ ٢ صـ ٥١١، وعقيدتنا، جـ ١ صـ ٦٧-٧٠.

(4) الإسلام والعقل، صـ ٩٧.

وتصحيحُ الأعمال لا يتمُّ إلا بعد معرفة علومها؛ وهى علوم الأحكام الشرعية؛ أصول الفقه وفروعه، وعلوم المعاملات؛ وكل ما لا غنَاء به من أمور المعاش(١)، «فمِن شأن الفقير: ألا يدخل فى طريق القوم إلا بعد تضلُّعه من علم الشريعة والحديث؛ وإلا فيُخاف عليه من الزندقة والابتداع،...»(٢).

أما الإمام الكتانى: فقد أجمع مؤرخو الصوفية على: أنه من العلماء العاملين، كان مرتاضًا كاملا فى أنواع العلُوم، أصحاب التصانيف، خاصةً فى التصوف – كما سبق نقل ذلك -، وفى هذا دلالة على مزيد عنايته بالعلم وحثِّه عليه.

وهو يرى: أن عبادة الله – تعالى- لا تصحُّ إلا بعد المعرفة به؛ إذ الجاهل بالشىء لا يُحسن محبتَه؛ وهو ما صرَّح به فى قوله: **(المعرفة بالله أتمُّ وأكمل من العبادة له)**(٣)، وذكر: أن سالك طريق القوم لابد له من أربعة أشياء تُعينه على سفره فى هذا الطريق، الذى سماه "مَفازة"، فقال: **(مَن يَدخل هذه المفازةَ يحتاج إلى أربعة أشياء: ... عِلمٍ يسُوسه ...)**(٤)، وسيأتى التعليق على هذَين النقلَين فى سياقهما.

وإذا كانت قيمة العلم مرهونةً بمقدار العمل به، فإن مشايخ الصوفية،

---

(١) انظر: التعرف لمذهب أهل التصوف، صـ ١٦٢.

(٢) الأنوار القدسية فى معرفة آداب العبودية، لعبد الوهاب الشعرانى، دراسة وتحقيق: د/ رمضان بسطاويسى محمد، صـ ٢٢٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧، وانظره، صـ ١٨٥ وما بعدها، وعوارف المعارف، صـ ٦٦-٧٤.

(٣) تذكرة الأولياء، صـ ٥١٣، وانظر: الطبقات الصوفية، للسلمى، صـ ١٣٠، وحلية الأولياء، جـ ١٣ صـ ٣٥٨.

(٤) تاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٤، وسير أعلام النبلاء، جـ ١٤ صـ ٥٣٤.

بل وغيرهم من أهل العلوم، مُجمِعون: على أن «العالِم إذا لم يعمل بعلمه، فليس بعالِم»([1])، فقد ثبت قيام "الكتانيّ" بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على المنابر، وكان أولَ مؤتَمِرٍ بما يأمر به، وأولَ منتَهٍ عما ينهَى عنه([2])، وقال: **«إذا سألتَ اللهَ – تعالى- التوفيقَ، فليكُن ابتداءُ سؤالك: بالعمل الصالح»**([3])، فعنده – كما عند المحققين- أن العلم والعمل لا ينفكُّ أحدهما عن الآخر.

وأذكر الآن موقفَه من بعض العلوم، حسبما تيسر لى من المادة العلمية الخاصة به.

## مَوقفه مِن علم الحديث النَّبويِّ:

وذكر موقفه من الحديث النبوى الشريف؛ يدل على التزام الصوفية بالسُّنة النبوية، وحرصهم على نشر الحديث النبوى الشريف.

فقد أكَّد مشايخ الصوفية على ضرورة تعلُّم المريد لهذا العلم الشريف، واهتم كثير من مشايخ الصوفية بعلم الحديث روايةً ودرايةً([4]).

غير أنه وردَت بعضُ الحكايات - ربما يفيد ظاهرُها - عدم اكتراثَ "الكتانى" بسماع الحديث النبويّ الشريف وتحصيله ومُدارسته؛ ومن ذلك:

قول "الكتانى": «كنتُ أنا و"أبو سعيد الخراز" و"عباس بن

---

([1]) عوارف المعارف، صـ ٦٦.

([2]) انظر: الكواكب الدرية، جـ ١ صـ ٥٩٧، ونتائج الأفكار القدسية، جـ ١ صـ ١٩٤.

([3]) تذكرة الأولياء، ص٥١٤، والطبقات الصوفية، ص١٢٨، وحلية الأولياء، ج١٣ ص٣٥٨.

([4]) راجع فى ذلك: علم التصوف، صـ ١٢٧-١٣٠، وانظر: ما نقلتُه قريبا عن "الشعرانى". ثم قارن: القشيرية، جـ ٣ صـ ١١٩.

المهتدِى"[1]، وآخَر – لَم يذكره – نسير بالشام على ساحل البحر، إذا شابٌّ يمشى، معه مَحبرة، فظننَّا أنه من أصحاب الحديث، فتثاقلنا به،...»[2].

فظاهر الكلام: أن سبب تثاقلهم به: أنه من أصحاب الحديث!! غير أن بعض الصوفية، بل وغير الصوفية، يذكر الروايةَ على غير هذا الوجه؛ فيسُوق الروايةَ بدون لفظ (فتثاقلنا به)[3].

أما "الإمام القشيرى"[4]: فيخالف الجميعَ، ويروى الحكاية عن غير الكتانى؛ وأذكُر كلامه فى ذلك، ممزوجًا بشرح "شيخ الإسلام زكريا الأنصارى"[5]؛ ليزُول الإشكال من أساسه؛ قال: «"وحُكى عن "أبى القاسم بن مروان النهاوندى"[6]، قال: كنتُ أنا و"أبو بكر بن الورَّاق"[1] مع "أبى

---

([1]) هو: أبو الفضل؛ من أهل بغداد، عُرف بالفتوَّة الظاهرة، والفراسة الحادة، وحُب الفقراء. دخَل مصر، وصحِب الخراز، وكان من أقران الجنيد. راجع: تاريخ بغداد وذيوله، جـ ١٢ صـ ١٥٠، وصفة الصفوة، جـ ١ صـ ٥٤٥.

([2]) تاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٢، وتاريخ بغداد وذيوله، جـ ٣ صـ ٢٨٩، وطبقات الأولياء، صـ ١٤٧.

([3]) انظر: سير أعلام النبلاء، جـ ٣ صـ ١٥٢، وصفة الصفوة، جـ ٢ صـ ٤٨٧، وطبقات الشافعية الكبرى، جـ ٣ صـ ١٥٢.

([4]) هو: أبو القاسم، عبد الكريم بن هوازن؛ كان علامة فى الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب وغير ذلك، وصار شيخَ خراسان فى التصوف، وهو صاحب "الرسالة" المشهورة فى التصوف، توفى سنة (٤٦٥هـ). راجع: سير أعلام النبلاء، جـ ١٨ صـ ٢٢٧-٢٣٢.

([5]) هو: زكريا بن محمد بن أحمد الأنصارى؛ من مشايخه: الحافظ ابن حجر العسقلانى. ومن مؤلفاته: شرح صحيح البخارى، وشرح الرسالة القشيرية. وفاته بالقاهرة، سنة (٩٢٦هـ). راجع فى ترجمته: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للحافظ شمس الدين السخاوى، جـ ٣ صـ ٢٤٣، نشر: دار الجيل – بيروت - بدون تاريخ.

([6]) هو: عثمان بن مَردان، من أصحاب أبى سعيد الخراز، أقام ببغداد مدة. راجع: تاريخ

سعيد الخراز"، نمشى على ساحل البحر نحو "صَيداء" – بفتح الصاد وبالمد، اسم بلد -، "فرأى" أبو سعيد "شخصًا من بعيد، فقال" لنا: "اجلسوا، لا يخلو هذا" الشخص "أن يكون وليًّا من أولياء الله. قال: فما لبثنا أن جاء شابٌّ حسَن الوجه"؛ وهو ذلك الشخص، "ومعه ركوة"؛ أى إناء من جلد، "و" معه "مِحبرة"؛ - بكسر الميم، كما قاله "الجوهرى"(٢)؛ أى دواة -، "وعليه مرقَّعة، فالتفَت إليه "أبو سعيد" مُنكِرًا عليه؛ لحمله المحبرة مع الركوة"؛ كأنه وجَد فى نفسه مِن حمْل المحبرة ما يجده المريدون؛ من أن بعض الفقهاء لَم ينالوا من الحقائق ما نالوه هُم، ...»(٣).

فانحلَّ الإشكال بهذا التقرير؛ إذ يرى الصوفية: أن حمل هذه "المحبرة" مُبطلٌ للطريق(٤).

ووجه قولهم بالاستغناء عن "المحبرة": ألا يُشغل المسافر نفسَه بشىء يتعلق به القلب من الأعراض العاجلة أو الحظوظ النفسانية، لكنهم فى

---

بغداد وذيوله، جـ ١٤ صـ ٤٠١، تاريخ دمشق، جـ ٤٠ صـ ٣٢.

(١) هو: محمد بن عمر الوراق، الحكيم، الترمذى، البلخى، من مسنِدى الحديث، ومن أصحاب أحمد بن خضرُويَه. راجع: الطبقات الصوفية، صـ ٧١، وصفة الصفوة، جـ ٢ صـ ٣٤٣.

(٢) هو: إسماعيل بن حماد، أبو نصر الفارابى، اللغوى المعروف، أصله من بلاد التُّرك من فاراب. كان إماما فى علم اللغة والأدب والأصول، من تصانيفه: (الصحاح)، (المقدمة فى النحو). توفى سنة (٣٩٣هـ-١٠٠٣م). انظر: سير أعلام النبلاء، جـ ١٧ صـ ٨٠.

(٣) الرسالة القشيرية مع إحكام الدلالة، جـ ٤ صـ ١٧٦.

(٤) قارن: المقدمة فى التصوف، لأبى عبد الرحمن السلمى، تحقيق: د/ يوسف زيدان، ص٢، ٢٢، نشر: دار الجيل- بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م. ونفحات، ص١٢١، ٢٣٢.

السفر يُوصون المسافر: أن يحمل معه "الركوة" و"الإبرة"، فالأُولى: لأجْل الطهارة والوضوء، والثانية: لأجل خياطة الثوب متى تمزَّق؛ سترًا للعورة(١).

وحكاية أخرى مشهورة، تتعلق بموقفه من علم الحديث:

أن شيخًا ذا هيبةٍ، دخل علَى "الكتانيّ" بالحرَم المكِّى، وسأل "الكتانىَّ": لِم لا تستمع إلى الشيخ الذى يَروِى الأحاديث بروايةٍ عاليةٍ إلى النبى ﷺ، والذى يحدِّث بها عند مقام إبراهيم عليه السلام؟ فسأله "الكتانىُّ" عن سند رواياته قائلا: «عمَّن يروى الحديثَ؟ قال: عبد الله، عن مَعمَر، عن الزُّهرى، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ. فقال الكتانى: أتيتَ بإسنادٍ طويلٍ، ما يحدِّثونه من الأخبار بالإسنادِ، ونحن نروى بغير إسنادٍ. قال الرجل: كيف ذلك؟ قال الشيخ الكتانى: حدثَنى قلبى عن الله – تعالى-. فقال الشيخ: وما علامة ذلك؟ قال: علامته: أنك الخَضِر عليه السلام. فقال الخضر عليه السلام: ما كنتُ أعلم أن يكون لله وليٌّ لا أعرفه، إلى أن التقيتُ بأبى بكر، فإنه عرفنى، وأنا ما عرفته. فظهر من هذا: أن لله أولياء لا يعرفهم غيره»(٢).

وقوله: (حدثنى قلبى عن الله): اشتهر ذكرها فى الاعتراض على الصوفية فى ادعائهم الاستغناء عن تعليم المعلِّم(٣)، وقوبلَت بنقدٍ من

---

(١) راجع: الرسالة القشيرية مع إحكام الدلالة، جـ ٤ صـ ٢٨.

(٢) تذكرة الأولياء، صـ ٥١١.

(٣) أشير إلى أن الباطنية: سُمُّوا تعليمية: «لأن مذهبَهم: إبطال الرأى، وإبطال تصرف العقول، ودعوة الخلق إلى التعلم من الإمام المعصوم، وأنه لا مدرِك للعلوم: إلا التعليم». راجع بالتفصيل: فضائح الباطنية، للإمام/ الغزالى، تحقيق: إبراهيم بسيونى محمد بسيونى، صـ ٣٣ وما بعدها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩م.

المحدِّثين؛ حيث ذهبوا: إلى أن «من ظن أنه يكتفى بما يقع فى خاطره عما جاء به الرسول – عليه الصلاة والسلام -، فقد ارتكب أعظم الخطأ، وأما مَن بالغ منهم – أى الصوفية - فقال: حدثنى قلبى عن ربى: فإنه أشدُّ خطأً؛ فإنه لا يأمن أن يكون قلبُه إنما حدَّثه عن الشيطان»(١).

لكن هل يتحقق هذا النقد – الموضوعىُّ - على مقولة الإمام الكتانى المذكورة؟

أقول: إن تمسُّكه بالشرع ومجاهداته شاهدةٌ بأنه لم يقصد المعنى الموجود فى النقد المذكور؛ بل قصْده بـ"التحديث" هنا: ما كان قَبيل وحى الإلهام إلى الأولياء، وهو دون الوحى إلى الأنبياء؛ فمراده: «أخبرَنى قلبى عن ربى، من طريق الإلهام؛ الذى هو وحى الأولياء، وهو دون وحى الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام-»(٢).

ومما يدل على عنايته بالحديث النبوى الشريف:

ما رُوى: أن "أبا حمزة البغدادىَّ الصوفى" «... كان فى السفر رفيقَ أبى "تراب النخشبىِّ"(٣)، و"أبى بكر الكتانى"، و"خير النساج"(١)،

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى، للحافظ/ أحمد بن على بن حجر؛ أبى الفضل العسقلانى، رقّم كتبه وأبوابه وأحاديث: محمد فؤاد عبد الباقى، جـ ١١ صـ ٣٤٥، نشر: دار المعرفة- بيروت، ١٣٧٩هـ. وحكَم ابن الجوزى: بأن قول هذه الكلمة (حدثنى قلبى عن ربى): من قَبيل الزندقة، ومَن صرح بها: فقد كفر. انظر: تلبيس إبليس، لابن الجوزى، صـ ٣٣٠، نشر: دار الفكر- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

(٢) نقل "الشعرانى" هذا الجواب عن الشيخ "أبى المواهب الشاذلى". انظر: الطبقات الكبرى؛ المسماة: لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار، جـ ٢ صـ ٦١، المطبعة العامرة الشرفية بمصر، ١٣١٥هـ. وانظر: نتائج الأفكار، جـ ٣ صـ ٢١٥.

(٣) هو: عسكر بن محمد بن حصين، من أصحاب: أبى حاتم العطار، وحاتم الأصم البلخى.

وغيرهم، ويروُون عنه الأحاديث»([2])؛ فهذه الحكاية صريحة فى سماعه الحديثَ وروايته له. ويقوّى ذلك أيضا: تصريح "السلمى" أن أصحاب الكتانى كانوا يعقدون حلقةً بمكة([3]).

فتحصل: أنه كان بهتم بدراسة الحديث النبوى الشريف؛ بقرينة: ملازمته لـ"أبى حمزة الصوفى"، واهتمام كثير من شيوخه وأصحابه فى الطريق – الذين ترجمتُ لبعضهم - بالحديث النبوى وروايته. وعدم وقوفنا على أحاديث نبوية مسندةً للكتانى، لا يعنى بالضرورة عدم اهتمامه بالحديث النبويِّ، لذا لا يضير "الكتانىَّ" ما قيل عنه: «ولا نحفظ له مسنَدًا»([4]).

---

توفى بالبادية، قيل: نهسته السباع سنة (٢٤٥هـ). راجع: الطبقات الصوفية، صـ ٤٦، والقشيرية، جـ ١ صـ ١٢٩، الكواكب الدرية، للمناوى، جـ ١ صـ ٣٥٨.

([1]) هو: أبو الحسن خير بن عبد الله النساج، سكَن بغداد، وصاحب أبا حمزة البغدادى، ولقى السرىَّ السقطىَّ، وهو من أقران النورى. عمّر مائة وعشرين عاما، وتوفى سنة (٣٢٢هـ). راجع: القشيرية، جـ ١ صـ ١٨٤، وحلية الأولياء، جـ ١٣ صـ ٣٠٧.

([2]) نفحات الأنس، صـ ٢٢٨، ٢٢٩.

([3]) انظر: طبقات الصوفية، صـ ١٤٨.

([4]) صفة الصفوة، لابن الجوزى، جـ ١ صـ ٥٤٠.

## خامسًا: أركان الطريق الصُّوفى عند الكَتانى

إن الصوفىَّ يُشبهُ المسافرَ فى الطريق الحسِّى؛ إذ الصوفىُّ مسافر أيضا، لكن سفره أرقَى وأشقُّ؛ لأنه مسافر إلى الله –تعالى-، ولابد للسالك من اجتياز مراحل السفر المعنوى؛ التى سُميت: بـ"الأحوال" و"المقامات"(١)، وهو ما ذكره الإمام الكتانى فى قوله:

**(إنَّ بين العَبد والحقِّ ألفَ مقامٍ من نُورٍ وظُلمَةٍ)(٢).**

و«وجه جعلها ألفًا: أنه لَما كان الألف من الجمع بين التمام فى المراتب والكمال فى العقد؛ جُعل مسافة غايتَى المقابلة ما بين العبد والحق – تعالى- فى حال البُعد. [وقوله]: **"من نور وظُلمة":** نعتٌ لكل مقام من الألف؛ فإنه ظلمة مما ينتقل العبد عنه من جهته، ونور ما ينتقل إليه بالقصد من جهته؛ بالتوجه لجناب الحق»(٣).

فإذا كان **السفر** يطلق على السفر الحسىِّ؛ بانتقال البدن من مكان إلى

---

(١) المقامات: هى «المنازل الرُّوحية التى يمرُّ بها السالك إلى الله – تعالى-، فيقفُ فيها فترةً من الزمن مجاهدا فى إطارها حتى يهيىء الله – سبحانه وتعالى- له سلوك الطريق إلى المنزل الثانى؛ لكى يتدرج فى السموّ الروحىّ من شريفٍ إلى أشرف، ومن سامٍ إلى أسمَى...». والأحوال: هى «النَّسمات الرُّوحية التى تهبُّ على السالك فتنتعش بها نفسه لحظات خاطفة، ثم تمر تاركةً عطرا تتشوق الروح للعودة إلى تنسُّم أريجه؛ مثل: الأنس بالله». أبحاث فى التصوف، صـ ١٨٧، وانظر: اللمع، للطوسى، صـ ٦٥، ٦٦، كشف المحجوب، جـ ٢ صـ ٤٠٨-٤١١، ٦١٦، وعوارف المعارف، صـ ٣٠٠-٣٢٩.

(٢) انظر: شرح شطرنج العارفين، لمحمد بن الهاشمى التلمسانى، صـ ١٧، بدون.

(٣) شرح منازل السائرين، لزين الدين محمد عبد الرءوف المناوى، ت: د/ محمد عبد القادر نصار، وأحمد إبراهيم عبد الحميد، صـ ٥٣، نشر: دار الكرز، والدار الجودية بالقاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

مكان، فإن الأرقى منه: السفر المعنوىُّ بالقلب([1])؛ وذلك بمخالفة شهواته، والعمل على إصلاحه بنقله من الأخلاق المذمومة إلى المحمودة، فهذا هو السفر الحقيقىُّ، لا يستغنى عنه أحد، وهو لأرباب الهمم العالية، وقليلٌ ما هم، والسفر بالأبدان أيضا لابد فيه من حُسن الخُلق سيما مع الرفقاء فى السفر، فيُعينهم ويؤْثرهم على نفسه، وسفره هذا يكشف له عن أخلاق نفسه؛ فيروِّضها ويجاهدها لتحسِّن أخلاقَها، وذكر الصوفيةُ الأشياءَ التى يحتاجها الصوفى فى سفره، فى قولهم: (يحتاج المسافر إلى أربعة أشياء فى سفره: علم يسُوسُه، وورع يحجزه، ووَجدٍ يحمله، وخُلُق يصونه)([2])، وهذه المعانى: عبَّر عنها الإمام الكتانى بقوله:

**(مَن يدخل هذه المفازةَ – أى طريق الصوفية - يحتاج إلى أربعة أشياء: حالٍ يحميه، وعِلمٍ يسُوسه، وورعٍ يحجُزه، وذِكر يؤنِسُه)([3]).**

ووجه الحاجة إلى المذكورات: أن المسافر إلى ربه يعمل على الوصول إلى قُربه، فيعينه على ذلك: أن يكون لديه استعداد فطرى أو نفسى لأن يستمدَّ من النَّسمات الرُّوحية (الأحوال) التى توهَب له من الحق – تعالى -. أما العِلم: فلابد منه لمعرفة حدود الطريق وآدابه مع المسافرين؛ ففى فقده إخلال بما يحتاج إليه الصوفىُّ فى دينه، وجهل بما يلزمه من الأدب مع ربه – تعالى- ومع رفاقه المسافرين. والورع: فيه كفٌّ عن كل ما يكرهه مولاه، فيكفُّ عن تناول المحرمات وما فيه شُبهة،

---

([1]) انظر: الرسالة القشيرية وإحكام الدلالة، جـ ٤ صـ ٢٣، ٢٨.

([2]) الرسالة القشيرية، جـ ٤ صـ ٢٨.

([3]) تاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٤، وسير أعلام النبلاء، جـ ١٤ صـ ٥٣٤.

فيكُف فى سفره عما كان يكف عنه فى حضَره. واليقين: يحثُّه على العبادة ويحمله عليها، فإذا اتصف باليقين: لم يصدّه عن سفره شىء يخشاه. وأما الذِّكر: فطريق الوصول إلى مطلوبه من الله تعالى([1]).

**أقوال "الإمام الكتانى" عن أركان الطريق:**

يُخطىء كثيرًا من يظن أن الصوفية لا يهتمُّون بالتكاليف الشرعية، ولا يحافظون على الأركان؛ بل لابد عندهم من العمل ومجاهدة النفس؛ يقول الإمام الكتانى فى ذلك: **«الأعمال كسْوة العُبودية، فمَن أبعده الله عند القسمة: نزعَها، ومن قرَّبه: أشفق عليها ولزمها»([2]).**

كما «اتفق مشايخ الصوفية: على أن بناء أمرهم على أربعة أشياء: قلَّة الطعام، وقلة المنام، وقلة الكلام، والاعتزال عن الناس»([3])، وتسمَّى بـ"أركان الطريق"، وهى: الخلوة، والصمت، والجوع، والسهر. فمَن أخلَّ بركنٍ منها: لم يتم له حالٌ فى طريقهم. «وإذا جاع المريد، تبعَها الأركان الثلاثة بالخاصية؛ إذ الجَوعان: مِن شأنه أن يقلَّ كلامه، ويكثر سهره، ويحب العزلة عن الناس»([4]).

وبالنظر إلى الإمام الكتانى:

نراه داعيًا إلى هذه الأقوال بلسان حاله وصِدق مقاله؛ فقد سبق: أنه كان (رَجُلا عظيمًا جدا، وكان ذا علمٍ ومجاهداتٍ كثيرة، بحيث لم يبلُغ أحد

---

([1]) راجع: إحكام الدلالة، جـ ٣ صـ ٢٤٣.

([2]) التعرف لمذهب أهل التصوف، صـ ٧٥.

([3]) عوارف المعارف، صـ ١٧٠، وانظره، صـ ٣٠٣، الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية، صـ٣٨، ٧٧.

([4]) السابق نفسه، صـ ٣٨، ٣٩، وانظره، صـ ٧٧، والقشيرية، جـ ٣ صـ ٢-٩.

درجتَه) - وسيأتى تمام هذا النقل فى سياقه قريبًا -، فكان كثيرَ الطاعات؛ كالطواف وقراءة القرآن.

وأما رأى الكتانى فى أركان الطريق عند الصوفية:

فمن أقواله فى ذلك: **(مِن حُكم المريد: أن يكون فيه ثلاثة أشياء: نومُه غلَبةً، وأكلُه فاقةً، وكلامُه ضرورةً)(١).**

وهى حكمة عالية من الكتانى؛ لأن شأن الصوفية: أنهم لا ينامون ولا يأكلون ولا يتكلمون إلا لضرورةٍ أو حاجةٍ؛ وعلة ذلك: أن يثيبَهم الله – تعالى- على أفعالهم ثوابَ الواجبات؛ فالإنسان إذا اضطُر إلى مباحٍ: صار فِعلُه حينئذ واجبًا، ولا شك أن ثواب الفرض أعظمُ من ثواب السُّنة(٢).

والأمور المذكورة فى قول الكتانى: صريحة فى وجوب صرف المريد عن نفسه كلَّ ما لا حاجة له إليه، ولا يبغى تحصيل مراده، فيترك ما زاد عن حاجته من طعامٍ أو نومٍ أو كلامٍ؛ امتثالا لقوله ﷺ: (مِن حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)(٣)؛ فكان نومُه غلَبةً: حتى يتقوَّى على العبادة التى خُلق لأجلها. وكان أكلُه بعد سبق الجوع أشبهَ بالفاقة؛ لأن كثرة

---

(١) كشف المحجوب، جـ ٢ صـ ٥٧٠، وتاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٦، ٢٥٨، وطبقات الأولياء، صـ ١٤٥. وعلَّق "الإمام الذهبىُّ" على ذلك بقوله: «قلتُ: نَعم، للصادق أن يُقلَّ من الكلام، والأكل، والنوم، والمخالطة، ...». سير أعلام النبلاء، جـ ١٤ صـ ٥٣٤.

(٢) الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية، صـ ٢٨٨ بتصرف، وانظر: المقدمة فى التصوف، صـ ٧٢، والقشيرية، جـ ٤ صـ ١٣١.

(٣) حديث صحيح؛ أخرجه الترمذى فى سننه، جـ ٤ صـ ٥٥٨ برقم ٢٣١٧ أبواب: الزُّهد عن رسول الله ﷺ. سنن الترمذى، بتحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م، مطبعة مصطفى البابى الحلبى. وانظر: نتائج الأفكار، جـ ٣ صـ١٢٠.

الأكل تورث كسل الجسد عن العبادة، وقسوة القلب. ولم يتكلم إلا بقدر الحاجة؛ لِما فى كثرة الكلام من لغط، سيما مع كثرة آفات اللسان.

**أما الجُوع والصَّمت:**

فإن إكثاره من الطواف، وختم القرآن، وعدم الكلام إلى أَحد أثناء الطواف والقراءة، وقوله عن المريد – سابقا -: **(وكلامه ضرورة)**، هذا كلُّه صريح فى التزامه بالصمت وبالجوع، بل صرح "الكتانى" بالتزامه بالجوع؛ فيقول: «كنتُ أنا و"عمرو المكى"(١)

و"عياش بن المهدى"(٢) نصطحب ثلاثين سنة، نصلى الغداة على طُهر العصر، وكنا قُعودا بمكة على التجريد(٣)، ما لنا على الأرض ما يساوى فلسًا، وربما كان يصحبنا الجوع يوما ويومين وثلاثة وأربعة وخمسة، ولا نسأل أحدا، فإن ظهر لنا شىء وعرفنا وجهه من غير سؤال ولا تعريض، قبِلناه وأكلناه، وإلا طوَينا، فإذا اشتد بنا الأمر وخِفنا على أنفسنا النقصانَ فى الفرائض، قصدنا "أبا سعيد الخراز"، فيتخذ لنا ألوانا من الطعام، ولا نقصد غيرَه، ولا ننبسط إلا إليه؛ لِما نعرف من تقواه وورعه»(٤).

وفى الحكاية: تحرِّيه الجوعَ، وتحريه طِيبَ المَطعم، والمحافظة على

---

(١) هو: أبو عبد الله عمرو بن عثمان بن كرب، من الطبقة الثانية؛ صاحَب الجنيدَ والخرازَ وغيرهما من المشايخ القدماء، وروى الحديثَ، وكان عالما فى الأصول، توفى ببغداد سنة (٢٩١هـ). راجع: الطبقات الصوفية، صـ ٦٥، وتاريخ بغداد وذيوله، جـ ١٢ صـ ٢١٨.

(٢) صوابه: (عباس بن المهتدى)، سبقت ترجمته.

(٣) أى على البُعد عن الأسباب التى تشغل عن العبادة.

(٤) عوارف المعارف، صـ ١٣٥.

الفرائض وخوف التقصير فيها.

والـ"فاقة" فى قوله: (وأكلُه فاقة)(١): قيل: هى الأكل مرةً كل يومَين وليلتَين، وقيل: كل ثلاثة أيام وليال، وقيل: كل أربعين يوما؛ حفظًا للحياة. أما ثمرة الجوع: فهى المشاهَدة.

**وأما الخَلـوَة:**

فلابد من معرفة الفرق بين "الخَلْوَة" و"العُزلَة"؛ فـ «العزلة: بداية المريد المضطربة، فإذا أحكم أمرَ الأحوال: أصبح أهلا للخلوة؛ متحققًا بأُنسه مع الحق وشئون الروح والحقائق»(٢). وقد ذكر "الإمام الغزالىُّ"(٣): (أنه آثر العزلةَ حرصًا على الخلوة)؛ وهذا يعنى: أن الخلوة تأتى بعد العزلة، فالعزلة: انقطاع معنويٌّ عن الخلق؛ تعنى: دوام مراقبة المريد لسلوكه، وحَذره من الاشتغال بغيره – تعالى-. والخلوة: انقطاع حقيقىٌّ عن الخلق فى مكان، فالعزلة: للقلوب، والخلوة: للأجسام.

وإذا كان الكتانىُّ أولَ مأمور بما يأمر به، فقد ائتمر بتحقيق الخلوة؛ يقول ("أبو بكر محمد بن إسماعيل الفرغانى"(٤): كنتُ أنا و"أبو بكر الزقَّاق"(٥) و"أبو بكر الكتانى" نسافر قريبا من عشرين سنة، لا نختلط

---

(١) راجع فى شرح قول الكتانى المذكور: كشف المحجوب، جـ ٢ صـ ٥٧٠.

(٢) علم التصوف، صـ ٨٢، وانظر: الفتوحات الإلهية، صـ ٢٥٢.

(٣) فى: المنقذ من الضلال، صـ ١٤٢، وانظر: نتائج الأفكار القدسية، جـ ٢ صـ ١٣٧، ١٣٩، عوارف المعارف، صـ ٢٧١، ٢٧٥، ٣٤١.

(٤) كان "الفرغانى" معروفا بإظهار الغِنَى، فيلبس أجمل الثياب، وفى يده مفتاح كبير حسَن، وليس له بيت، يأوى إلى المساجد، ويطوى بطنَه جائعا خمسة أيام أو ستة، وتوفى سنة (٣٣١هـ). راجع: تاريخ دمشق، جـ ٥٢ صـ ١١٧، وصفة الصفوة، جـ ٢ صـ ٣٤٧.

(٥) هو: أحمد بن نصر؛ الزقاق الكبير؛ من أكابر مصر، ومن أقران الجنيد، يقول أبو بكر

بأحد من الناس ولا نعاشر أحدا، نَقدُم البلدَ، فإن كان فيه شيخ: دنَونا منه وسلَّمنا عليه وجالسناه، فإذا كان الليل: عُدنا إلى المسجد، فيقوم الكتانىَّ من أول الليل إلى أن يُصبح، فكنا نعدُّ له ختمةً،...)(١).

وله قول رقيقٌ فى وجوب الخلوة، الناتج عن مداومة الاشتغال بالله – تعالى – عما سواه؛ فيقول:

**(الأُنس بالمخلوق: عُقوبةٌ، والقُرب من أهل الدنيا: معصيةٌ، والمَيل إليهم: مذلَّة)(٢).**

وليست الخلوةُ انقطاعا تامًّا عن الخَلق؛ بدليل مجالسة الكتانى وأصحابه للشيخ إن وجدوه، وبدليل: أن قيامه بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فـ(كان يأمر بتقوَى الله على المنابر، وتنطق بها ألسنة أقلامه من أفواه المحابر، [ومع] ذلك كان بها أولَ مأمورٍ)(٣). كما أنه جعَل (نُصح الخلق) من الأشياء المجمَع عليها بين أهل الأقطار؛ فقال: (الشىءُ الذى لم يخالف فيه كُوفىٌّ ولا مدنىٌّ ولا عِراقىٌّ ولا شامىٌّ: هو...،

---

الكتانى: (لما مات الزقاق انقطعت حجة الفقراء فى دخولهم مصر)؛ ذلك لِما عُرف من اتهام الصوفية قاصد بلد من البلاد بقصد الرزق، فكان الفقراء يدخلونها، محتجِّين: بأنهم يقصدون الزقاق، ولا نقصد الانتفاع. راجع: القشيرية وإحكام الدلالة، جـ ١ صـ ١٥٧.

(١) تاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٤، والقشيرية، جـ ٤ صـ ٢٥.

(٢) تذكرة الأولياء، صـ ٥١٢، الكواكب الدرية، للمناوى، جـ ١ صـ ٥٩٩. وراجع عن حال "الأُنس": الطريق إلى الله "كتاب: الصدق"، لأبى سعيد الخراز، ت: الإمام/ عبد الحليم محمود، صـ ٩٠-٩٤، نشر: دار المعارف، الطبعة الرابعة، بدون تاريخ. واللمع، صـ ٩٦.

(٣) الكواكب الدرية، جـ ١ صـ ٥٩٧، مع تصحيح من: نتائج الأفكار، ج١ ص ١٩٤.

النصيحةُ للخلق)[1]، ولا يتأتَّى نصحهم حال تمام الانقطاع عنهم. وسيأتى تمام النقل المذكور فى سياقه.

ثم هو مختلط بتلامذته ومريديه؛ وواعظ لهم، ويبدو أنه اتخذ من حكايات السابقين وسيلة من وسائل التربية؛ فقد سُئل الكتانى: (الفائدة فى مذاكرة الحكايات؟ فقال: الحكايات جُند من جنود الله، يقوِّى بها أبدانَ المريدين. فقيل له: هل لهذا من شاهد؟ قال: نعم، قال الله – تعالى- ﴿ **وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ** ﴾[2].

وينبغى تدقيق النظر فى قوله: (هل لهذا من شاهد)؟ أى من الشرع؛ فهذا صريح فى تمسك القوم بالشرع فى طريقهم.

والحاصل: أن البُعد عن الناس بقصد التفرغ للعبادة وطلب سلامة الدين وإراحة القلب والبدن: أفضل من الاختلاط بهم، ومحل جواز ذلك وأفضليَّته: ما لم يحتَج إلى الناس أو يحتاج الناس له.

**أما السَّهر** وعدم النَّوم: فقد قام الكتانى به؛ فهو القائل:

**(كُنا معاشر الفقراء فى بداية أُمرنا أن نصلِّىَ إلى الصباح بوضوء العِشاء، فإذا وقع منَّا أن أحدًا ينام، نراه أفضلَنا)[3].** وعبارة "القشيرى": (فإذا وقع معنا إنسان "آخر"، ينام، كنا نراه أفضلَنا)[4]؛ وذلك لاتصاف

---

(1) الرسالة القشيرية، جـ ٢ صـ ١٧٤، والطبقات الصوفية، للسلمى، صـ ١٢٩.

(2) تاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٧، وتاريخ بغداد وذيوله، جـ ٣ صـ ٢٨٨، وطبقات الأولياء، صـ ١٤٦، ١٤٧. والآية المذكورة: من الآية رقم (١٢٠) سورة (هود). وانظر: اللمع، صـ ٣٧٥.

(3) الطبقات الكبرى، للشعرانى، جـ ١ صـ ٩٤.

(4) الرسالة القشيرية مع إحكام الدلالة، جـ ٤ صـ ٢٥.

الصوفية: بحُسن ظنهم بغيرهم؛ إذ يرَون غيرَهم أفضلَ منهم؛ يقوّى ذلك: إشارة الكتانى الرقيقة: إلى أن كلَّ آدميٍّ لابد له من عثرة وهفوة وزَلة، والواجب إزاءها: التماس الأعذار للآخرين؛ فيقول: **(ما من عاقلٍ إلا وله هفوة، وما من مستقيم إلا وله زَلَّة، وما من مجتهد إلا وله عَثرة)**(١).

وسبق عن "الفرغانى": أن الكتانى كان يقوم من أول الليل إلى أن يصبح، قارئًا ومصليًا، وهذا ما ذكره غير واحد من مؤرخى الصوفية؛ وهذا ما ذكروه عنه:

(كان – رحمه الله – يصلِّى من أول الليل إلى آخره)(٢). وكان "المرتعش" يقول عنه: (الكتانىَّ سِراج الحرَم)(٣). (وجلس – الكتانى - فى الحرم الشريف ثلاثين سنة تحت الميزاب – عند جدار الكعبة -، وكان يتوضأ فى هذه المدة كلَّ يوم مرَّة، وما نام فى مدةِ ثلاثين سنة)(٤). وكان (رجلا عظيما جدا، وكان ذا علم ومجاهدات كثيرة، بحيث لم يبلُغ أحد

---

(١) المحاضرات والمحاورات، لجلال الدين السيوطى، صـ ٢٨٥، نشر: دار الغرب الإسلامى- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

(٢) تذكرة الأولياء، صـ ٥٠٨.

(٣) نفس الصفحة السابقة، وتاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥١، وتاريخ بغداد وذيوله، جـ ٣ صـ ٢٨٨. و"المرتعش": هو أبو محمد عبد الله بن محمد النيسابورى، صحب الجنيدَ وكبار المشايخ، حتى صار أوحدَ مشايخ العراق، قيل: عجائب بغداد فى التصوف ثلاثة: الشبلى فى الإشارات، والمرتعش فى المكاشفات، وجعفر الخلدى فى الحكايات، توفى ببغداد سنة (٣٢٨هـ). راجع: تذكرة الأولياء، ص٥٠٢، الطبقات الكبرى، للشعرانى، ج١ ص٩٠.

(٤) تذكرة الأولياء، صـ ٥٠٨. مع ملاحظة: أن عدم النوم مدة ثلاثين سنة: مبالغة منهىٌّ عنها فى الشرع.

درجتَه. وواحدة من مجاهداته: أنه جلس فى مكة ثلاثين عاما تحت قُبةٍ، وكان يتطهر مرةً واحدة كلَّ يوم وليلة، وهذا صعبٌ؛ لأنه لم ينَم قط، بل إن النوم لم يكن يأتيه فى مجلسه هذا،...)[1].

وأما نفحات الحق – تعالى- للقائمين بالليل، فيقول عنها الكتانى:

**(إن لله – تعالى- ريحًا تسمَّى: ريح السَّحَر، مخزونة تحت العرش، تهبُّ وقتَ السحر، وترفع أنينَ المذنبين واستغفارهم إلى حضرة القُدس)[2].**

ولعله لا يقصد الريح بالمعنى الحقيقيِّ[3]، فقد يريدُ أن قُربَه – تعالى - من عباده وشدة لُطفه بهم واستجابته لدعائهم، يَكثر فى وقت السحَر. ولعله استشفَّ هذا المعنى من قوله ﷺ: (يَنزل اللهُ إلى السماء الدنيا كلَّ ليلةٍ حين يمضى ثُلُث الليل الأول، فيقول: أنا المِلِك، أنا الملك، مَن ذا الذى يدعونى فأستجيب له، من ذا الذى يسألنى فأُعطيَه، مَن ذا الذى يستغفرنى فأغفر له، فلا يزال هكذا حتى يضىءَ الفجرُ)[4]؛ أى يَنزل أمرُه، أو يُنزلُ الملَك بأمره. وقد يكون الكلام على الاستعارة؛ أى يتلطَّف بالداعين والإجابة لهم.

---

(1) أسرار التوحيد، صـ ٢٨٢.

(2) تذكرة الأولياء، صـ ٥١٤، وفى تاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٢: (ريحا تسمَّى [الصَّبيحة]..).

(3) والقول بأنه يقصد بـ(الريح) معنى مجازيا: له شاهد فى كلامهم. راجع: تذكرة الأولياء، صـ ٥٨٥.

(4) الحديث: رواه الإمام مسلم في صحيحه، جـ ٦ صـ ٣٦ – كتاب: صلاة المسافرين وقصرها- باب: صلاة الليل مثنى مثنى والوتر ركعة من آخر الليل. وانظر: فتح البارى، جـ ٣ صـ ٣٠، الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية، صـ ٦٩.

أما إذا كان يقصد الريحَ بالمعنى الحسيّ: فلَم أقف على آثرٍ فى ذلك.

**دعوته إلى العمل وتحرّى الإخلاص فيه:**

والحاصل: أنه يدعو إلى العبادة والعمل، والاجتهاد فى الطاعات؛ بأفعاله وأقواله، ومن أقوله فى ذلك:

**(مَن طلَب الراحةَ بالراحة عُدم الراحةَ)**[1]؛ إذ طَلبُ الراحة فى العاجل، لا يعنى إلا عدم الاستراحة فى الآجل، وهو ما نهى عنه "الكتانى"؛ فأوجب على المريد أن يعمِّر وقتَه بما يليق به من الطاعات؛ فإن كان فى نعمةٍ: شكَر، أو فى بلاءٍ: صبَر، أو فى طاعة: دام واستقرَّ، أو فى ذنب: تاب واستغفر. فلا يلتفت إلى ماضٍ ولا مستقبلٍ؛ لأن الالتفات إليهما: تضييع لحاضر، وهو معنى قولهم: (الصوفىُّ ابن وقته)[2]؛ وهو أيضا معنى قول "الكتانى":

**(الاشتغالُ بوقتٍ ماضٍ: تَضييعُ وقتٍ ثانٍ)**[3].

وقال الكتانى": (سألت "ابن الفرَجِيّ"[4] فقلتُ: إن لله صفوة، وإن لله خِيرَة، فمتى يعرف العبدُ أنه مِن صفوة الله ومِن خيرة الله؟ فقال: كيف

---

(1) تاريخ بغداد وذيوله، جـ ٣ صـ ٢٨٨، ولفظ "ابن عساكر" فى تاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٦: (مَن طلب الراحةَ، فالراحة عَدم الراحة).

(2) انظر: القشيرية، جـ ٢ صـ ٢٣، والأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية، ص٥٤.

(3) الزهد الكبير، لأبى بكر البيهقى، ت: عامر أحمد حيدر، صـ ١٩٦، مؤسسة الكتب الثقافية- بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م.

(4) هو: أبو جعفر الصوفى؛ محمد بن يعقوب بن الفرَح، من أهل سامراء، كان من أهل الدنيا، ومن أرباب الأحوال، وأنفق مالَه الغزير على طلب العلم والفقراء، كان يحفظ الحديثَ، وأكثر عن المحدِّث "عليّ بن المَدينيّ". توفى بعد (٢٧٠هـ). انظر: تاريخ بغداد، ج ٤ ص ١٥٧.

وقعتَ بهذا؟ قلتُ: جرى على لسانى. قال: إذا خلع الراحةَ، وأعطى المجهود فى الطاعة، وأحبَّ سقوطَ المنزِلة، وصار المدحُ والذمُّ عنده سواء)(١).

فهو صريح فى ضرورة العمل والتعب، وبذل الطاقة فى تحصيل الطاعات، وعدم طلب الشُّهرة والمنزلة عند الناس.

وقال: **(إذا سألتَ اللهَ – تعالى- التوفيقَ، فليكُن ابتداء سؤالك: بالعمل الصالح)(٢).**

ووصف العمل بـ"الصالح": إشارة إلى وجوب كون العمل موافقًا للشرع؛ بالامتثال لأوامر الحق – تعالى- ونواهيه؛ حتى تكون صحيحةً، ويُرجَى قبولها. ولْيكن التعامل بين الناس قائما على أساس حُسن الخُلُق، لذا يذكر الكتانى ما كان عليه أهل القرون الأولى من قوةٍ فى الدين وحسنٍ فى الأخلاق، ثم ضعُف الدينُ وحُسن الخلُق فى النفوس شيئا فشيئا، حتى عُدموا الحياءَ، فتعاملوا لا على أساس الدين ولا حُسن الخلُق، بل مَن رجَى تحصيل شىء: أحسن فى تعامله؛ بقصد منفعة نفسه لا غير، وكذا من خاف شيئا، أحسن بقصد تجنب ضرره لا غير، فخوْفهم ورجاؤهم هنا: من المخلوقين، لا من الخالق، وهذا من النقص العظيم؛ يقول الكتانى فى ذلك:

**(كان الناس فى ابتداء الإسلام يتعاملون بالدين، حتى رقَّ الدين، ثم تعامَل الناس بالوفاء، حتى ذهب الوفاء، ثم تعامل القرن الثالث بالمُروءة، حتى ذهبت المروءة، ثم تعامل القرن الرابع بالحياء، حتى**

---

(١) تاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٦، وتاريخ بغداد وذيوله، جـ ٣ صـ ٢٨٩.

(٢) تذكرة الأولياء، ص٥١٤، والطبقات الصوفية، ص١٢٨، وحلية الأولياء، ج١٣ ص٣٥٨.

**ذهب الحياء، ثم صار الناس يتعاملون بالرغبة والرهبة)**[1].

ولا يليق إغفال حِكمة ذكره "الحياء" فى هذا الموضع؛ ففى فقد الحياء: فتْح لباب الرذائل؛ لقوله ﷺ: (إذا لم تستح فاصنَع ما شئتَ)[2]، فللحياء أثر عظيم فى تهذيب النفوس وتقويم الأخلاق، بل هو من شُعب الإيمان؛ كما نطقت بذلك الآثار؛ كقوله – صلى الله عليه وسلم - (الحياء شعبة من الإيمان)[3]، بل عظَّم الكتانىُّ من شأن الحياء؛ فجعلَه واحدا وسبعين بابًا من أبواب العبادات البالغة اثنين وسبعين بابًا؛ فقال:

**(العبادة على اثنَين وسبعين بابًا؛ واحد وسبعون بابًا منها فى الحياء من الله – سبحانه وتعالى-، وواحد فى جميع أنواع البر)**[4].

وأما دعوته إلى تحرى الإخلاص فى العمل:

فإن من أئمة الصوفية مَن يستعيذ به – تعالى- ويستجير به ألا يعذبه بذُلِّ الحجاب؛ ويعنون بـ"الحجاب": ما يَحُول بين الشىء المقصود وبين قاصده، فإن "الكتانى" يحذِّر العاملَ العابدَ أن يرى فضلا لثواب عمله

---

(1) نَسب الطوسى هذا القول للكتانى، فى: اللمع، صـ ١٦٧. وعزاه القشيرى: إلى "الجريرى"، فى: الرسالة القشيرية، ج ٣ ص ١٤٦، ١٤٧، وكذا فى تذكرة الأولياء ص ٦٧٢.

(2) حديث صحيح، أخرجه أبو داود فى سننه، جـ ٤ صـ ٢٥٢ برقم ٤٧٩٧ من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، نشر: المكتبة العصرية- بيروت.

(3) حديث (الإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياء من الإيمان): أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (بشرح النووى)، ج٢ ص٣ - كتاب: الإيمان- باب: شُعَب الإيمان، نشر: دار إحياء التراث العربى– بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ. وانظر: الطريق إلى الله، ص٧٣-٧٦.

(4) تذكرة الأولياء، صـ ٥١٣، والكواكب الدرية، للمناوى، جـ ١ صـ ٥٩٨.

وعبادته، فهذه الرؤية: (حجابٌ له عن الحجاب المَنهيِّ عنه، ورؤيته للحجاب: حجاب عن إعجابه بعلمه)(١). وهذا المعنى: عبَّر عنه الكتانى بقوله:

**(رؤيةُ الثواب: حجابٌ عن الحجاب، ورؤيةُ الحجاب: حجابٌ عن الإعجاب)(٢).**

ومع تحذير العابد أن يرى فضلا لثواب عمله وعبادته، لا يليق به أن يرى أن اجتهاده فى العمل سبب للقُرب من رحمته – تعالى-؛ فهذا عين التعَب؛ لأنه ركن إلى أعماله وظنَّها سببَ الوصول للقرب؛ إذ القرب لا يلزم ترتبه على الاجتهاد فى العمل، بل العبرة بما سبق فى القضاء الأزلى الذى لا اطلاع لأحد عليه، بل الواجب على العبد: أن "يمتثلَ، ويفوِّضَ". أما اجتهاده: فعلامة على حُسن العاقبة، ليس إلا. ولا يعنى ذلك: ترك العمل، واعتقاد أنه سيصل إلى القُرب بدون عمل، فهذا عين التمنِّى؛ أى غرور النفس بوساوس الشيطان، وهذا معنى قول الكتانى: (سمعتُ "أبا سعيد الخراز" يقول:

**مَن ظنَّ أنه بِبذْل المَجهُود يَصِل: فمُتعنٍّ، ومن ظن أنه بغير بذْل المجهود يصِل: فمُتمنٍّ)(٣).**

---

(١) اللمع، للطوسى، صـ ٤٢٨، وانظر: كشف المحجوب، جـ ١ صـ ٣٢٢.

(٢) اللمع، للطوسى، صـ ٤٢٨.

(٣) الزهد الكبير، صـ ٢٨٣، ونفحات الأنس، صـ ٢٣٩، وتذكرة الأولياء ص٤٦٤، وانظر: القشيرية ونتائج الأفكار، ج١ ص٥٣، ١٧٢، ج٢ ص١٧٠، ج٤ ص٤٦. والحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية، د/ عبد الفتاح بركة، ج٢ ص٣٦، ٧٦، مجمع البحوث الإسلامية، بدون تاريخ. وانظر عن "علامة الواصلين": الطريق إلى الله، ص١١٤-١١٧.

فالعجب بالعمل والركون إليه: يَعدُّه الصوفية من قلة العقل ورُعونة الطبع؛ لأنه افتخارٌ بما ليس له، بل العامل مدبَّر فى عمله؛ لذلك قال الكتانى:

**(كيف يعجب عاقلٌ بعمله، وهو يعلم أنه لا يقدر على شىءٍ من عمله)**[1].

وقوله: (وهو يعلم أنه لا يَقدر على شىء من عمله): لا يعنى إثبات الجبر؛ بل معناه: الركون فى قبول كل شىء إلى مشيئته – تعالى- وقدرته.

فالعبد مأمور بالعبادة، ثم ترك التدبير، والتحلى بالذلة والافتقار؛ يقول الكتانى فى ذلك:

**(سمعتُ محمدَ بن يعقوب يقول: كابدتُ العبادةَ خمسين سنة، ولَم أُصب الحقيقةَ، ثم نوديتُ: "كُن عبدًا واسترِح"، فتركتُ الاحتيالَ والاختيارَ، ولزمتُ الذلةَ والافتقارَ، فاسترحتُ)**[2].

ومما يُعين المريدَ على ستر حاله عن غيره وعن نفسه أثناء سفره: أنه إذا نزل مكانًا، فلينزل بمسجدٍ، فهذا يحقق مقصودَه من إخلاص العبادة وعدم الشُّهرة، وليداوم على ذلك، لعل الموتَ يأتيه وهو على حالته هذه، أو حالته التى يرجو تحقيقَها والوصولَ إليها، فلا يسكن إلى حالته الأولى، وفى نفس الوقت لا يكن طلبه للحالة الثانية باعثا له على كُره الأُولى، بل

---

(1) الملامتية، لأبى عبد الرحمن السلمى، ت: أبو العلا عفيفى، صـ ١١٨، منشورات الجمل- بيروت، وبغداد، ٢٠١٥م. وانظر: تذكرة الأولياء صـ ٦٠١.

(2) معجم السفر، لأبى طاهر السِّلفى، ت: عبد الله عمر البارودى، صـ ٣٣١، المكتبة التجارية- مكة المكرمة، بدون تاريخ.

عليه أن يسعى ويجدَّ فى طلب الأكمل، ويرضى بما يجريه الحق – تعالى- عليه[1]، وهذه المعانى ذكرها "الكتانى" فى جوابه على سؤال أحد المريدين، لَمَّا قال للكتانى: "أوصِنى" فأجاب الكتانى قائلا:

**(اجتَهد أن تكون كلَّ ليلة ضيفُ مسجدٍ[2]، وأن لا تموتَ إلا بيْن منزلتَين)[3].**

وأقواله المذكورة: صريحة فى تجنب الرياء والعجب بالعمل، وتحرِّى الإخلاص فيه؛ إذ العمل الخالص: هو ما كان بعيدا عن هذه الآفات، ولم يطلب صاحبه عليه أجرًا من مخلوق؛ يقول الكتانى فى ذلك: (سمعتُ أبا حمزة يقول وقد سُئل عن الإخلاص؟ فقال: الخالص من الأعمال: ما لا يحب أن يَحمده أحد عليه إلا الله – عز وجل-)[4].

ومن بليغ ما نَصح به فى تحرِّى الإخلاص وتجنب الرياء: أن أحد المريدين

سأله قائلا: أوصنى، فقال له:

**كُن كما تُرِى الناسَ، وإلا فأرِ الناسَ ما تكون. كن فى الدنيا ببدنك**

---

(1) راجع: إحكام الدلالة ونتائج الأفكار، جـ ٤ صـ ٢٥، وجـ ١ صـ ١٤٣.

(2) لا يُراد بـ"المسجد": مسجدًا بعَينه، فعند الصوفية: يُكره ملازمة مكان مخصوص؛ لِما يُوهمه ذلك من التعرُّض للسؤال والدعوى. راجع: نتائج الأفكار، جـ ٤ صـ ٢٥. والجلوس فى المساجد: عدَّه السلمى من شرائط التصوف. انظر: المقدمة فى التصوف، صـ ٧٢.

(3) القشيرية، جـ ٤ صـ ٢٥، وتاريخ دمشق، جـ ٥٤ ص٢٥٥، وانظر: اللمع، ص٢٥٠.

(4) شعب الإيمان، للبيهقى، جـ ٩ صـ ١٨٤، نشر: مكتبة الرشد بالرياض، والدار السلفية بالهند، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

**وفى الآخرة بقلبك)**[1].

ومع شدة اجتهاده فى العبادة، وحثِّه على أن تكون خالصةً لله – تعالى- وحْده، فالعجب ممن ادعى أن مواعظ الكتانى وعباداته واجتهاداته كانت بقصد طلب درجة الولاية وبلوغها؛ فيقول هذا الباحث بعد ذكر شىء من أقول الكتانى: «... وعندئذ راودت فكرة الولاية قلب أبى بكر الكتانى...»[2]**!!**

ولا أجد ردًّا عليه سوى نصوص الكتانى المذكورة، والتى أغفل هذا الباحث ذكرها جملةً**!!**

## سادسا: مراحل الطريق الصُّوفى

### مُجاهدة النَّفس:

إن مراحل الطريق الصوفى (المقامات والأحوال): متعددة؛ كالتَّوبة والزُّهد والذِّكر وغيرها، وأذكر هنا ما وجدتُ له مادةً علميةً عند "الكتانى"، وأقدِّم قبلَها: الكلامَ على مجاهدة النفس عند الصوفية؛ لِما يأتى: أنها تسبق التوبةَ.

فإذا كان "الصفاء" يعنى: تنقيَةَ القلب والباطن، وسُموَّ النفس؛ بتهذيبِها وتقويمِها، وكان القلبُ محلَّ "المشاهدة"، فمن المنطقى أن يهتمَّ الصوفية بمجاهدة النفس؛ بحملها على المشاقِّ البدنية ومخالفة الهوى؛ وذلك بفعل ما يمحو الأخلاقَ الذميمةَ ويحصِّل الأخلاقَ الحميدةَ؛ سواء كانت من أعمال

---

(1) الطبقات الصوفية، صـ ١٢٨، والزهد الكبير، صـ ١٤١، وشعب الإيمان، جـ ٩ صـ ٢٢٩، وتذكرة الأولياء، صـ ٥١٤، وتاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٥.

(2) دراسات فى التصوف الإسلامى شخصيات ومذاهب، د/ محمد جلال شرف، صـ ٣٥٧.

القلوب أم الجوارح[1]، و«لم يُعرف فى تاريخ المذاهب الأخلاقية قوم اشتدُّوا فى مخالفة النفس وتصفية الباطن كما فعل الصوفية، وليس بين المرتاضين على الفضيلة والأخلاق من استندوا إلى إرادةٍ وهمةٍ تغلب إرادة الصوفية وهِمَّتهم»[2]

والإمام الكتانى من الذين يُولُون للقلب والنفس اهتمامًا بالغًا؛ وتأتى إشارة إلى اشتغال نفسه بتمنِّى عدمَ موت قلبه، ورؤيته للنبى ﷺ وسؤاله الدعاءَ بذلك، فهو يرى: أن الاهتمام بإحياء القلب وعمارته وحِفظه وحراسته: رُكنٌ من أركان الإسلام؛ إذ كيف يؤدَّى الركنُ من قلبٍ لاهٍ! يقول فى ذلك:

**(إن حفظَ قلبَ المؤمن، أحبُّ إلىَّ من أن أحُجَّ حجَّةً مَبرُورةً)[3].**

ويظل الكتانى متعاهدًا لقلبه بالحفظ والحراسة حتى وفاته، فلم يشغله بغير الله – تعالى-، وأخرج منه ما سواه؛ يدل لذلك: أنه لما حضرته الوفاة، (سأله بعضُ الأصحاب عن أعماله فى حياته؟ قال: لو لم أكُن مُشرِفا على الوفاة لمَا كنتُ أُخبركم، ثم قال:

**كنتُ أربعين سنةً حارسًا للقلب من غير الله – تعالى-، فدفعتُ ما وجدتُ فيه باقيًا غيرَ الله – تعالى-، حتى ما بقىَ فى قلبى سوى الله – تعالى- منه شىء)[4].**

---

(1) راجع: الرسالة القشيرية، جـ ٢ صـ ١٢٤-١٣٦، وعلم التصوف، صـ٦٩ وما بعدها.

(2) الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الإسلامى، للدكتور/ أحمد محمود صبحى، صـ ٢٣٦، ٢٣٧، دار المعارف، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.

(3) المقدمة فى التصوف، للسلمى، صـ ٥٧.

(4) تذكرة الأولياء، صـ ٥١٤.

وإهمال تهذيب النفس وتقويمها حال الصِغر، يظهر أثره على صاحبه وقت الكِبَر؛ فقد (نظر الكتانىُّ إلى شيخ أبيض الرأس واللحية، يسأل الناسَ، فقال:

**هذا رجُل أضاع حقَّ الله فى صغره، فضيَّعه الله فى كِبره)**[1].

ففى قوله هذا: «تنبيهٌ على أن من فرَّط فى نفسه، فدام على إهمال النفس، ولم يُراع تأديبَها؛ بإرجاعها إلى طريق الورع، يَبقى على الهمَل مبعدًا فى حال كبَره»[2].

ومعلوم أن النفسَ طُبعت على حُب اللذيذ والنفرة من المكروه، فالسَّعى لفَطْمها عن ذلك، ومخالفتها: هو تقويةٌ لها وشفقةٌ عليها؛ يقول الكتانىُّ فى ذلك:

**(العاجز مَن عجَز عن سياسة نفسِه)**[3].

أما المفرِّط فى تهذيبها وتقويمها: فهو مقودٌ من الشيطان بزمام المعاصى، فما تمكَّن منه الشيطان، إلا لشغفه بالمعاصى وحرصه عليها، فلما كان كذلك: أصبح أسيرًا لشهواته وشيطانه؛ يقول الكتانى فى ذلك:

**(الشَّهوة زِمامُ إبليس، فمَن أخذ بزمامه كان عبدَه)**[4].

وحبْس النفس عن شهواتها وفطْمها عن مألوفاتها: هو مهر الحُور

---

(1) الطبقات الصوفية، للسلمى، صـ ١٢٩، والقشيرية، جـ ١ صـ ١٩٥، وتاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٨، وطبقات الأولياء، صـ ١٤٧.

(2) نتائج الأفكار القدسية، جـ ١ صـ ١٩٥.

(3) تاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٤، وطبقات الأولياء، صـ ١٤٥.

(4) الرسالة القشيرية، جـ ١ صـ ١٩٥، وتاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٨، وانظر: الطبقات الصوفية، للسلمى، صـ ١٢٩، الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية، صـ ٥٣.

العين فى الجنة؛ فقد ذكر الكتانى:

أنه رأى فى منامه حَوراء، ما رأَى فى الدنيا أحسن منها، فسألها أن تزوّجه نفسَها، فأمرتْه أن يخطبَها من سيدها، فسألها الكتانى عن مهرها؟ «فقالت: حبُس النفس عن مألُوفاتها»(١).

ومِن شِيَم الكُمَّل الدالة على قوة هضم النفس: اتهامها فى الأفعال التى تظهر عنها؛ وهذا ما حكاه الكتانى فى قوله:

(صحِبَنى رجل، فكان على قلبى ثقيلا، فوهبتُ له شيئا؛ ليَزول ما فى قلبى، فلَم يزُل، فحملتُه إلى بيتى وقلتُ له: ضَع رِجلَك على خدِّى، فأبَى، فقلتُ: لابد تفعل، واعتقدتُ ألا يرفع رِجلَه من خدِّى حتى يرفع الله من قلبى ما كنت أجده، فلما زال من قلبى ما كنت أجدُه، قلتُ له: ارفع رِجلَك الآن)(٢).

فالكتانى هنا يستثقل مصاحبةَ هذا الرجل، بدون سبب معروف، فسَعَى الكتانى لإزالة سبب الاستثقال من باطنه؛ لأن وجود ذلك فى الضمير، يؤدى إلى الوليجة فى الصُّحبة؛ لذلك وهب له شيئا؛ تطييبًا لنفس هذا الرجل، ومع ذلك لَم يزُل هذا الثقل، فأذلَّ الكتانى نفسَه، بأن عزم على صاحبه بوضع قدمه على خدِّ الكتانى - على ما فى الحكاية – وفِعْل ذلك للمداواة: جائز، وإن لم يكن له شاهد من الشرع.

والدافع للكتانى على ذلك: أنه اتهم نفسَه بسبب سوء أخلاقها،

---

(١) الوافى بالوفيات، جـ ٤ صـ ٨٣.

(٢) الرسالة القشيرية، جـ ٤ صـ ٣٤، وتاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٥، وطبقات الأولياء، صـ ١٤٦. وفى (عوارف المعارف، صـ ٢٨٣): أن "الرقِّى" خرج من الشام إلى الحجاز قاصدا الكتانى؛ ليسأله عن هذه الحكاية.

وكراهيتها لغيرها بدون سببٍ ظاهر معروف يستلزم الكراهية، وهذا من دسائس الشيطان([1]).

ومن مظاهر المحافظة على القلب، وتهذيب النفس: تحقيق التقوى:

فقد سبق: أن الكتانى كان يأمر بها ويأتمر بها([2]).ـوأول خطوة فى تحقيق التقوى: عدم متابعة الشهوات؛ فقد سُئل الكتانى عن تعريف المتَّقِى؟ فأجاب:

بأنه (مَن اتقَى ما لهج به العوامُّ من متابعة الشهوات، ورُكوب المخالفات، ولزوم باب الموافقة، وأنِس براحة اليقين، واستند إلى رُكن التوكل: أتَته الفوائد من الله – عز وجل - فى كل حال، فلَم يغفل عنها)([3]).

ومحل التقوى: القلب، ويظهر أثرها على الجوارح، لكن لا تسكن كلَّ قلب، بل لا تسكن إلا القلب الذى حزن على تقصيره فى حقوق الله – تعالى-، أما القلب الذى قسى وغفل عن مولاه، ودل على قسوته وغفلته: بفرحه وسُروره بالدنيا ومُتعها: فلا تسكنه التقوى؛ وهذا ما عبر عنه الكتانى بقوله:

(رأيتُ فى المنام شابًّا لَم أرَ أحسن منه، فقلتُ له: مَن أنت؟ فقال: التقوى، فقلتُ: وأين تسكُن؟ قال: فى كل قلبٍ حزينٍ، ثم التفتُّ، فإذا امرأة سوداء كأوحش ما يكون، فقلتُ: من أنتِ؟ فقالت: الضحك، فقلت: وأين تسكنين؟ فقالت: فى كل قلب فرحٍ مرحٍ. فانتبهتُ واعتقدتُ ألا أضحك إلا

---

([1]) راجع: إحكام الدلالة ونتائج الأفكار القدسية، جـ ٤ صـ ٣٤.

([2]) انظر: الكواكب الدرية، جـ ١ صـ ٥٩٧، ونتائج الأفكار، جـ ١ صـ ١٩٤.

([3]) الطبقات الصوفية، للسلمى، صـ ١٣٠، وحلية الأولياء، جـ ١٣ صـ ٣٥٨. وانظر: القشيرية جـ ٢ صـ ١٤٧.

غلَبة)([1]).

والصوفية يقولون بـ**"الفُتوَّة"**؛ وهى ملَكة فى الشخص، تقتضى البَذلَ، مع شُهود الفضل لله – تعالى-([2])، فأولى بالمريد أن يبذلَ على نفسه؛ بتهذيبها ومراقبتها، ومن مظاهر ذلك: محاسبتها؛ وعدَّ "السلمىُّ" من الفتوة: محاسبة النفس والعلم بها، وتأسُّف صاحبِها على ما فاته من عمره فى المخالفات؛ بدليل: ما ذكره الكتانى: عن رجلٍ كان يحاسب نفسَه، فلما بلغ عمرُه الستين، حسبَ أيامه، فإذا هى واحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وأغشىَ عليه، قائلا: "يا ويلتاه، ألقَى ربى بأحد وعشرين ألف وخمسمائة ذنب؟ هذا إذا كان لى فى كل يوم ذنب واحد فقط، فما بالى ولى فى اليوم عشرة آلاف ذنب"، فأغشى عليه ثانيًا، فوجدوه ميتًا([3]).

## ١- التَّـوبَـة

التوبة: أصلٌ للمقامات والأحوال، فمَن فقد الأصل: لم يصح له بناء. والأصل فيها آيات؛ كقوله – تعالى-: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا** ﴾([4]). وهى فى اللغة: «الرُّجوع عن الذَّنب»([5]). أما فى الشرع: فلها تعريفات كثيرة؛ إذ «الأقاويل فى حدود التوبة لا تنحصر،...

---

([1]) السابق نفسه، جـ ٤ صـ ٢٠٢.

([2]) راجع: الرسالة القشيرية ونتائج الأفكار، جـ ٣ صـ ١٦٨ وما بعدها.

([3]) راجع: الفتوة، لأبى عبد الرحمن السلمى، ت: د/ إحسان الثامرى، ود/ محمد القدحات، صـ ٢٣، دار الرازى بالأردن، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

([4]) سورة: (التحريم)، من الآية رقم (٨)، وانظر: إحياء علوم الدين، جـ ٤ صـ ٥.

([5]) مختار الصحاح، للشيخ الإمام/ محمد بن أبى بكر الرازى، عُنى بترتيبه: محمود خاطر بك، صـ ٨٠، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٣٤٠هـ-١٩٢٢م.

جميع ما قيل فى حُدودها: قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها»[1]، ومما قيل فى تعريف التوبة: أنها «الرُّجوع عن كل ما ذمَّه الشرع، والعودة إلى كل ما مدحَه الشرع»[2].

وحتى تتحقق التوبة: لابد من وجود: زاجر يزجر صاحبها عن الغفلة. وبعده يجد العبدُ حالَ الانتباه من الغفلة. ثم يتيقَّظ فى طلبه للطريق الصواب، فيبدأ فى طلبه وتحرِّيه. واليقظة تدل صاحبَها على مقام التوبة[3].

وعن بعض أحوال "الزجر" و"الانتباه" و"التيقُّظ" يقول الكتانى:

**(رَوعة[4] عند انتباهٍ من غفلةٍ، وانقطاع عن حظ النفسانية، وارتعاد من خوف قطيعة، أعوَدُ على المريد من عبادة الثقلَين)[5].**

وللتوبة شروط صحة، وشروط تحقيق، وشروط كمال[6]؛ فشروط صحتها: الندم على الذُّنوب، والإقلاع عنها فى الحال، والنية على عدم الرجوع إلى الذنوب ثانيةً. وانعدام هذه الشروط يعنى: انعدامَ التوبة. وشروط التحقيق: أن يصمِّم التائب فى القصد؛ بالرجوع عن كل الذنوب،

---

(1) إحياء علوم الدين، جـ ٤ صـ ٥، وانظر: الرسالة القشيرية مع إحكام الدلالة، جـ ٢ صـ ٣٣، ١٠٩-١٢٣، الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية، صـ ٣٧.

(2) دراسة فى التصوف الإسلامى، للدكتور/ محمد الأنور حامد عيسى، صـ ٥٧، وانظره حتى صـ ٦٢، توزيع: شركة الصفا، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.

(3) راجع فى تفصيل ذلك: عوارف المعارف، صـ٣٠٣-٣٠٧.

(4) فى تذكرة الأولياء، صـ ٥١٣: (الحُزن الحاصل وقتَ الانتباه من الغفلة ...).

(5) تاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٨، وصفة الصفوة، جـ ١ صـ ٥٣٩، حلية الأولياء، جـ ١٣ صـ ٣٥٨، وانظر: الطبقات الصوفية، للسلمى، صـ ١٢٨، واللمع، صـ ٤٤٤.

(6) راجع فى تفصيل ذلك: الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية، صـ ٢٤٢.

لا عن بعضها فقط، ثم أداء الحقوق. وردّ المظالم. وانعدام هذه الشروط يعنى: أن صاحبها عاصٍ. وشروط الكمال: التشمير والاجتهاد فى الطاعات مستقبَلا؛ ليتدارك التقصير فى الماضى. والفرار من أماكن الفتن. وتحرى تحصيل الكمال. ومن فاته شروط الكمال: لَم يجد للتوبة لذة.

ومتى ترقَّى العبد فى درجات التوبة، بأن نازَلها وحقَّقها، ثم لزم باب المجاهدة، فهو يسير فى طريق الولاية.

فالكتانى يعرِّف التوبةَ: بأنها (البُعد عن المذمومات كلِّها، إلى الممدوحات كلها)، ثم يذكر ثمرات هذا البُعد، وما يجب على العبد بعد التوبة؛ فيُجيب مَن سأله عن التوبة بقوله:

هى **(البُعد عن المذمومات كلِّها، إلى الممدوحات كلِّها، ثم المكابَدات، ثم المجاهدات، ثم الثَّبات، ثم الرَّشاد. ثم يُدرك من الله الولايةَ وحُسن المعُونة)**(١).

ويقول عن كثير من شروطها السابق ذكرها

**(التوبة: اسمٌ جامعٌ لستة أشياء: الأول: الندم على ما فات. والثانى: العزمُ على ألا يعود إلى الذنب أبدا. الثالث: أن يقضىَ ما فات بينه وبين الله – تعالى- من الفرائض. والرابع: ردُّ المظالم إلى أربابها. والخامس: إذابة لحمٍ نبت من الحرام. والسادس: أن يذيق الجسدَ مرارةَ الطاعة كما أذاقه حلاوةَ المعصية)**(٢).

ومتى تحققت التوبة بشروطها السابقة رُجى قبولها، ومن علامات

---

(١) تاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٣، ٢٥٤، تاريخ بغداد وذيوله، جـ ٣ صـ ٢٨٨.

(٢) تذكرة الأولياء، صـ ٥١٣.

قبولها أن يفتح الحق – تعالى- على عبده من أبواب الطاعات والدعوات والاستغفار ما لم يكن موجودا من قبل؛ وهذا مراد الكتانى من قوله:

**(لَم يفتَح الله – تعالى- لسانَ المؤمن بالمَعذرة، إلا لِفتْح باب المغفرة)**[1].

فمراده: أن الحق – تعالى- فتَح للعبد باب الاعتذار والاعتراف بالتقصير، فأكثَر من دعاء ربه والتضرع إليه، والدعاءُ عبادة، وترك الذنوب والتوبة منها من أهم أسباب قبول الدعاء.

وفتْح باب المغفرة إشارة إلى قَبوله – تعالى- للتوبة متى كانت صحيحةً، وإلى شُمول رحمته – تعالى- لكل خلقه؛ كما قال الكتانى:

**(الغافلون: يعيشون فى حِلم الله، والذاكرون: يعيشون فى رحمة الله، والعارفون: يعيشون فى لُطف الله، والصادقون: يعيشون فى قُرب الله)**[2].

## ٢- الـزُّهْـد

الزهد فى الدنيا: سببٌ لكمال الأخلاق الحميدة والإعراض عن الأخلاق الذميمة، وهذا الإعراض: هو أول درجات التصوف، فمن أخلَّ بها: اتصف بأقبح الصفات. والزهد: من أعمال القلوب؛ إذ هو: الإعراض بالقلب عن الدنيا، وهذا لا يعنى عدم الالتفات إلى الدنيا كليةً؛ بمعنى التباعد والدَّفع والنفور، أو عدم رعايتها لخدمة الإيمان، بل يعنى: عدم شغف القلب بالدنيا وعدم تطلعه إليها وترقُّبه لها، والفرق بين المنزلتَين: كبير. أما ما يتبادر عند البعض من أن لفظ الزهد يعنى: خلوَّ اليد عن المِلك، أو ردَّ

---

(١) الرسالة القشيرية، جـ ٣ صـ ٢٢٨، وانظر: تذكرة الأولياء، صـ ٥١٣.

(٢) الطبقات الصوفية، للسلمى، صـ ٢٩، وانظر: حلية الأولياء، جـ ١٣ صـ ٣٥٨، وتاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٧.

العبد ما يأتيه: فمن ثمرات الزهد، وأيضا لُبس الغليظ من الثياب أو أكل الخَشِن من الطعام: ليسا تعريفًا للزهد، وقد يكونان من علاماته؛ فقد يتقلل من الطعام من ليس زاهدًا، بل شحيحًا أو حريصًا على المال، فالمدار: على القلب(١).

هذه مقدمة ذكرتُها؛ لتأكيد أن الزهدَ – عند خواص الخواصِّ - محلُّه القلب، وأن من أماراته: عدمُ الحزن على فقد اليد للمال أو غيره من متاع الدنيا، بل السُّرور والرضا القلبى، الناتج عن مدوامة الطاعة والعبادة وعدم الالتفات إلى الدنيا. والزاهد: هو الفاقد، المسرور، الراضى، العابد؛ وهذا ما ذكره الكتانى عندما سُئل عن حقيقة الزهد؟ فأجاب:

بأنه **(فقْدُ الشىء، والسُّرور من القلب بفقده، وملازمة الجهد إلى الموت، واحتمال الذُّل صبرًا، والرضا به حتى تموت)**(٢). **و(الزاهد: مَن لا يجد شيئًا، وقلبُه مسرور بذلك، ويكون مُجدًّا مجتهدًا فى الطلب؛ أى فى طلب العبادة، وكان راضيًا إلى أن يموت)**(٣).

والزهد بهذا المعنى: اتفق كثير من أهل الأقاليم: على أنه محمودٌ، وكفى بهذا الاتفاق شاهدا على فضيلة الزهد وأهميته؛ يقول الكتانى فى ذلك:

**(الشىءُ الذى لم يخالف فيه كُوفىٌّ ولا مدنىٌّ ولا عِراقىٌّ ولا شامىٌّ:**

---

(١) انظر: الطريق إلى الله، للخراز، صـ ٥٤-٦٣. والرسالة القشيرية وإحكام الدلالة، جـ ٢ صـ ١٦٢-١٧٧، قواعد التصوف. صـ ١٠٦، التصوف فى الإسلام، للشيخ/ محمد الصادق عرجون، صـ ١٩، ٢٨، ٤٢، ٨٢-٨٧، نشر: دار القارىء العربى، ١٩٩٣م.

(٢) الطبقات الصوفية، للسلمى، صـ ١٢٩، وانظره، صـ ١٧٤.

(٣) تذكرة الأولياء، صـ ٥١٢.

**هو الزُّهد فى الدنيا، وسَخاوةُ النفس، والنصيحةُ للخلق)**[1].

والإعراض عن زينة الدنيا، وعدم تطلُّع القلب إليها، يَنتج عن اشتغال القلب بالله – تعالى- دون ما سواه، فإذا امتلأ القلب بذلك: لم يَعُد فيه مكان للاشتغال بشىء من زينة الدنيا ومُتَعها؛ وهذا ما أفاده الكتانى بقوله: **(من كان الله همَّه، لا يستقطعُه من الكَون شىءٌ، ولا يأسره من زينتها قليل ولا كثير)**[2].

وعدم شَغَف القلب بالدنيا وعدم تطلعه إليها وترقُّبه لها، وعدم حرصه على تحصيلها: من أمارات المخلِص فى الطريق، وغيره دَعىٌّ يُؤمَر بهجرانه، فالكتانى **(كان يهجُر الفقيرَ إذا بلغه أنه مشى خطوة فى طلب الدنيا، ويقول: هذا خروج عن الطريق، وإنما شأن الفقير: أن تتبعه الدنيا)**[3].

وفى زمن الكتانى: عُرف أن من يسافر اليمنَ، إنما يقصدها لأجل الرِّفق؛ أى السعة فى الدنيا، والساعى إلى الدنيا: يأمر الكتانى بهجرانه؛ خوفًا من أن يشوِّش على المريدين فى طريقهم إلى ربهم إذا هم خالطوا هذا المسافر؛ يقول "الكلاباذى" فى ذلك: **(كان "الكتانى" إذا سافر الفقير إلى اليَمن، ثم رجع إليه مرة أخرى، يأمر بهجرانه. وإنما كان يفعل ذلك: لأنهم كانوا يسافرون إلى اليمن فى ذلك الوقت لأجْل الرفق)**[4].

---

(1) الرسالة القشيرية، جـ ٢ صـ ١٧٤، والطبقات الصوفية، للسلمى، صـ ١٢٩.

(2) الطبقات الصوفية، للسلمى، صـ ١٣٠.

(3) الطبقات الكبرى، للشعرانى، جـ ١ صـ ٩٤.

(4) الرسالة القشيرية، جـ ٤ صـ ٢٨، وانظرها، جـ ١ صـ ١٥٧، واللمع، صـ ٢٥٢. وسبق فى هامش: قول الكتانى عن موت "الزقاق" وانقطاع حجة الفقراء فى دخولهم مصر.

والمنقول عن مشايخ الصوفية: أنهم كانوا يهجُرون الفقيرَ إذا فعل ثلاث خصال: إذا حج عن غيره مقابلَ مال، أو أتى "خراسان"، أو دخل "اليمن"؛ أما "خراسان": فلا يأتيها آتٍ إلا للرفق بها، ويرَون أنه لا يوجَد بها مُباح، فلا يكون مطعمه طيّبا، «وأما اليمن: ففيه طرق إلى الفسق كثيرة»(١).

وسرُّ حثِّه على الإعراض عن الدنيا وعدم الحرص عليها: يُوجزه فى قوله:

**(قُسِّمت الدنيا على البلوَى(٢)، وقُسمت الجنة على التقوَى)(٣).**

فهو صريح فى أن متاع الدنيا بلاء على أصحابها، بدليل شدة ابتلاء الموفَّقين فيها؛ ليكون جزاؤهم عند الله عظيما. وإذا كان محلُّ المجاهدة هو الدنيا، فإن ثمرة المجاهدة يحصل فى دار الجزاء، وهى الآخرة.

ودارٌ هذا شأنها وهذه قيمتها، يجب على المريد أن يبيع الحرص عليها، ويشترى به القناعة؛ بأن تقف نفسُه عند ما رُزقت، من غير تشوُّفٍ إلى زيادة. فمتى فعل ذلك، فاز بالمروءة وعزة النفس؛ لأن ذلَّ النفس: فى الحاجة إلى الناس ومزاحمتهم على الدنيا، فمَن ترك ذلك: كان عزيزَ النفس، عالىَ المرتبة، وهذا ما أشار إليه الكتانى فى قوله:

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف، صـ ١٧٣، وفى اللمع، للطوسى، صـ ٢٥١: (ليس من آدابهم: أن يسافروا للدوران والنظر إلى البلدان وطلب الأرزاق، ولكن يسافرون إلى الحج والجهاد ولقاء الشيوخ ...).

(٢) فى تذكرة الأولياء، صـ ٥١٤: (مدار الدنيا: على البلوى ...)، وقال محققه: كُتب فى بعض النسخ تحت لفظة "البلوى": الاحتياج.

(٣) الرسالة القشيرية، جـ ٢ صـ ١٤٩، وتاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٩. وفى شرح القشيرية: أن فى بعض نسخ القشيرية: (وقسمت الآخرة على التقوى).

**(مَن باع الحِرصَ بالقناعة، ظفر بالعزِّ والمُروءة)**[1].

ومادام الحرص على الدنيا وأموالها، سبيلَ المذلة والإهانة، فقد عدَّ الكتانى انشغال القلب واهتمامه بالمال، مبعِدًا عن الله – تعالى-، وسببا لتبرُّؤ الحق – تعالى- من صاحبه، يقول الكتانى فى ذلك:

**(من أصبح وعنده همَّان: همُّ المعاصى وهم المال: فالله منه برىء)**[2].

والكتانى كان أولَ مأمور بما يأمر به، فهو آمر بالإعراض عن الدنيا، وهجران من يحرص عليها؛ تجنُّبا للمذلَّة والإهانة، ويحكى لنا أنه تلقَّن درسًا فى ذلك من أحد الفقراء؛ فيقول:

(كان عندنا بمكة فتى عليه أطمار؛ "أى أثواب" رثَّة، وكان لا يداخلنا "فى أمورنا" ولا يجالسنا "فى مجالسنا"، فوقع محبته فى قلبى، ففُتح لى بمائتَى درهم من وجهٍ حلال، فحملتُها إليه، ووضعتُها بين يديه على طرف سجادته، وقلتُ له: إنه فُتح لى ذلك من وجه حلال، "فأتيتُ به لك" تصرفه فى بعض أمورك. فنظر إلىَّ شزرا؛ "أى بمؤخر عينه، علامةً على غضبه"، ثم كشف عما هو مستورٌ عنِّى، وقال: اشتريتُ هذه الجلسة مع الله – سبحانه – على الفراغ "من المشغلات لى عنه"، بسبعين ألف دينار غير الضياع والمستغلات منها، تريد أن تخدعنى عنها "وتفسدها علىَّ" بهذه "الدريهمات"! وقام وبدَّدها؛ "أى فرَّقها ونثَرها على طرف سجادته"، فقعدتُ ألتقطُها، فما رأيتُ كعِزِّه حين مرَّ "وأعرض عنها"، ولا كذُلِّى حين

---

([1]) الرسالة القشيرية، جـ ٤ صـ ٤٤، وتاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٥. وانظر: الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية، صـ ٢٨٦.

([2]) الطبقات الكبرى، للشعرانى، جـ ١ صـ ٩٥، والكواكب الدرية، جـ ١ صـ ٥٩٨.

كنتُ ألتقطُها)[1].

ففى هذه الحكاية: دلالة على تحرّيه طِيبَ المطعم؛ كما يظهر من قوله: (من وجه حلال). وتدل أيضا: على محبة الكتانى لفعل الخير. وحُسن أدبه مع الفقير؛ إذ لم يكلِّفه تناول ما يعطيه له، بل وضَعه بين يديه، إن أحبَّه قبضه، وإن كرهَه تركَه. وفيها دلالة على فناء الفتى عن حُظوظه، وخُروجه عن آلاف الدنانير؛ رغبةً فى الانقطاع إلى الله – تعالى-.

وحكاية أخرى قريبة منها؛ يقول فيها الكتانى:

(كنتُ فى طريق مكة فى وسَط السَّنة، فإذا أنا بهيمان؛ "أى كيس نُقود"، ملآن، يلتمع دنانير، فهممت أن أحملَه لأفرِّقَه بمكة على الفقراء، فهتف بى هاتف: إن أخذتَه سلبناك فقرَك)[2].

ففيها كرامة للكتانى؛ إذ حُذِّر من الدخول فى الدنيا، وأُرشد إلى أن بقاءه على فقره أفضلُ له عند الله؛ ولعل الله علم أنه إن أخذ الدنانير، نسى فقرَه وسكنت نفسُه إلى المال؛ لأن «الفقر عند التمكن فى الأحوال، أعزُّ من المال»[3].

والحكاية المذكورة وما تدل عليه، تدفع لتساؤلٍ مشهور هو: أيُّهما أفضل: الفقير أم الغَنىّ؟

والجواب باختصار: أن الفقر والغِنَى يختلفان باختلاف الأشخاص والأحوال؛ فكلٌّ منهما مضمَّنٌ فى الآخر، فالفقير الصابر: هو الغنىُّ

---

(1) القشيرية وإحكام الدلالة، جـ ٣ صـ ٢٤٧، ٢٤٨، والكواكب الدرية، جـ ١ صـ ٥٩٩.

(2) الرسالة القشيرية، جـ ٤ صـ ١٨٠، وتاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٨.

(3) إحكام الدلالة، جـ ٤ صـ ١٨٠.

الشاكر؛ فلا تفاضل، والعبرة بما فى القلب؛ لا اليد([1]).

وهذ الجواب: ذكره الكتانى بعبارة مختصرة بديعة؛ فقال:

**(إذا صحَّ الافتقار إلى الله – تعالى- صحَّ الغِنَى به؛ لأنهما حالان؛ لا يتمُّ أحدُهما إلا بصاحبه)**([2])، وذكره البعض([3]) بلفظ: (إذا صحَّ الافتقار إلى الله – تعالى-، صحَّت العناية من الله؛ لأنهما حالان لا يتمُّ أحدهما بدون الآخر).

والحديث عن الزهد، لابد أن يتوَّج بالحديث عن **(الورَع)**؛ لأن تعوُّد الزهد يخفِّف على صاحبه تعودَ الورع. وكمال الورع: أن يترك الإنسان ما لا بأس به، حذرًا مما به بأس؛ بأن يتركَ الشبهات، ويفتِّشَ عن الحلال، ويتثبَّت فى المقال([4])، والمعانى السامية للورع، جمعَها "الكتانى" فى قوله:

**(الورَع: هو ملازمة الأدَب، وصِيانة النَّفس)**([5]).

وهذا التعبير من أسمى ما قيل فى التعبير عن "الورع"؛ لأن "الأدب" عند الصوفية: متولِّد من صفاء القلب وحضوره، والأدب شامل لجميع

---

([1]) انظر: الفتوحات المكية، لابن عربى. جـ ٣ صـ ١٧، نشر: دار الكتب العربية الكبرى بمصر، بدون تاريخ. وقواعد التصوف، صـ ١٠٥، الاعتصام، للإمام/ الشاطبى، جـ ١ صـ ٧٩، والرسالة القشيرية مع إحكام الدلالة، جـ ١ صـ ١٢٢، جـ ٣ صـ ٢٤١.

([2]) الطبقات الصوفية، للسلمى، صـ ١٢٩، والتعرف لمذهب أهل التصوف، صـ ١١٢، وتاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٧، وطبقات الأولياء، صـ ١٤٥، وانظر: حلية الأولياء، جـ ١٣ صـ ٣٥٨، تذكرة الأولياء، صـ ٤٩٠.

([3]) هو: العطار؛ فى: تذكرة الأولياء، صـ ٥١٣.

([4]) انظر: الطريق إلى الله، للخراز، صـ ٤١، ٤٢، والرسالة القشيرية، جـ ٢ صـ ١٥٦-١٦٣، وعوارف المعارف، صـ ٣١٠.

([5]) تاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٧، الزهد الكبير، للبيهقى، صـ ٣١٨.

أصناف الخيرات والمبرَّات، مختلف باختلاف المتأدِّبين؛ فيعنى بالنسبة للمريدين الذين قوىَ يقينهم: «رياضة النفوس بنور المتابَعات، وتأديب الجوارح؛ بحفظ الحدود، وترك أنواع الشبهات»(١).

وبهذا تظهر قوة العلاقة بين "الورع" والتزام "الأدب" وتهذيب النفس، حتى تُصان.

## ٣- التَّـوكُّـل

التوكُّل فى اللغة: إظهار العجز والاعتماد على الغير. وفى الحقيقة: تخلُّص القلب من علة التوكل؛ بشاهد: أن يعلَم أنه – تعالى- خلَق الخلقَ ولَم يُهملهُم، بل قدَّر الأشياءَ كلَّها، فإذا وُجد اختلال: فسببه المريد. وبعبارة أدقُّ: حقيقة التوكل: «إراحة النفس من كل النظر، ومن مطالعة السبب؛ سُكونًا إلى ما سبق فى القسمة مع استواء العالمين فى النظر، ومع علم أن الطلب لا يجمع، والتوكلَ لا يمنع»(٢).

ولاشك أن هذا التعريف الدقيقَ جمع بين رُكنَى "العِلم"، و"كمال النفس"؛ بإراحتها من النظر، وهذا مراد الكتانى من قوله:

**(التوكُّل فى الأصل: مُتابَعة العلم، وفى الحقيقة: كَمال النَّفس)(٣).**

ثم إنه بهذا المعنى: عزيز الوجود، نادر التحقُّق، إلا فيمن أحبَّ الله؛ لذا قال الكتانى: **(مَن عزم على التوكل، فليحفر لنفسه قبرًا، ويدفن نفسه**

---

(١) نتائج الأفكار، جـ ٤ صـ ١٣، وانظر: القشيرية وإحكام الدلالة، بنفس الصفحة وما بعدها.

(٢) نتائج الأفكار القدسية، جـ ٣ صـ ٤٦، وانظر: الطريق إلى الله، للخراز، صـ ٦٤، والمقدمة فى التصوف، للسلمى، صـ ٤٢.

(٣) تذكرة الأولياء، صـ ٥١٣، وانظر: تاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٨.

**فيه، ويتوكل على الله فى دفن نفسه، ثم إذا أخرج: توكَّلَ عليه فى التوكُّل عليه)([1]).**

ولا يوجَد تصريح للكتانى بترك العمل، سواء كان العمل بمعنى "العبادة"، أو بمعنى "الحِرفة"؛ فقد سبق ذكر أقواله الداعية إلى الاجتهاد فى العمل – بمعنى العبادة -، مع عدم الاغترار بالعمل وثوابه أو السُّكون إلى ذلك، بما يُغنى عن إعادته وتكرار القول فيه هنا([2])، مع ملاحظة ما ذكره المؤرخون: أنه سُمِّى بـ "الكَتانىّ": نسبةً إلى الكَتان وعمله، هذا بالنسبة إلى العمل بمعنى "الحِرفة".

ثم هو يلقِّن درسا، فى تحقيق معنى التوكل والثقة بالله – تعالى-، وإراحة النفس من عناء النظر، وتخليصها من ضعف اليقين، وتعويدها الوُثوق بموعوده – تعالى-، وحثِّها على تحقيق "التجريد"([3])؛ يظهر ذلك من قول "أبى الحسين المزيّن([4]) – رحمه الله –":

(دخلتُ الباديةَ بلا زادٍ ولا راحلة، ووصلتُ بعد زمان إلى جومة – بِرْكة - ماء، فجلستُ هناك، وقلتُ فى نفسى: قطعتُ الباديةَ بلا ماءٍ

---

([1]) المقدمة فى التصوف، صـ ٤٢.

([2]) انظر: اللمع، للطوسى، صـ ٢٥٩-٢٦١، ٥٢٣.

([3]) «تجريد الظاهر: هو ترك الأسباب الدنيويَّة وخرْق العوائد النفسية الجسمانية. والتجريد الباطنىّ: هو ترك العلائق النفسانية والعوائق الوهمية. وتجريدهما معا: هو ترك العلائق الباطنية والعوائد الجسمانية». الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية، صـ ٤٨، وانظره، صـ ٢٣٤.

([4]) هو: علىُّ بن محمد، البغدادى؛ من الطبقة الرابعة، ومن أصحاب الجنيد وسهل التسترى، كان كبيرا فى مقام الورع، أقام بمكة، إلى أن توفى بها سنة (٣٢٨هـ). راجع: القشيرية ونتائج الأفكار، جـ ١ صـ ١٩٦.

وراحلةٍ! فصاح علىَّ إنسان وقال: "يا حجَّام، لا تحدِّث نفسَك بالأباطيل"، نظرتُ إليه، فإذا هو أبو بكر الكتانيّ– رحمه الله-، فتُبتُ عن هذا الفكر، ورجعتُ إلى الله– تعالى-)(١).

فهنا يدعو إلى "التجريد"، وهو يرجع إلى قول "صاحب الحكم العطائية": (إرادتُك التجريد مع إقامة الله إياك فى الأسباب: من الشهوة الخفية، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك فى التجريد: انحطاط عن الهمة العَلِيَّة)(٢).

وسبقت حكاية "الكتانى" عن سفره على التجريد مع رفاقه، عند الكلام على "الجوع".

## ٤- الـذِّكـر

للذكر عند القوم منزلة رفيعة؛ فقد أجمعوا على أن عمدة الطريق: الإكثار من ذكر الله ﷻ، فهو مفتاح الغيب، وجاذب الخير، وأنيس المستوحش، ومنشور الولاية؛ أى مرسوم منه – تعالى- للعبد بالولاية، فلا ينبغى تركه ولو مع الغفلة. وذكره – تعالى-: دليل على صدق التوكل عليه؛ لأن الذكر بصدقٍ يدفع عن الذاكر ما قدَّر الله دفعَه عنه من البلاء، وهو من أكثر العبادات ثوابًا عند الله – تعالى-؛ بدليل قولـه: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾(٣)، والذكر يورث: الأُنسَ بالله وعدم الغفلة عنه وسماع خطابه،

---

(١) تذكرة الأولياء، صـ ٥٠٩، والتعرف لمذهب أهل التصوف، صـ ١٧٨، وانظر: حلية الأولياء، جـ ١٣ صـ ٣٤٠.

(٢) الحكم العطائية، بشرح: ابن عباد والشرقاوى. جـ ١ صـ ٤، ٥، نشر: الحلبى.

(٣) سورة: (العنكبوت)، من الآية رقم (٤٥).

وهو دليل على محبة الذاكر لله – تعالى-([1]).

ولِما للذكر من هذه المنزلة الرفيعة، يرى الكتانى: أنه فرضٌ؛ بدليل: أنه – تعالى- أمر به، وقد سبق: استصغار الكتانى لنفسه، ويضيف هنا: استعظامه لأمر المذكور – تعالى- فى قلبه، مما يدفعه للامتثال للأمر بالذكر، فرضًا كان الذكر أو نفلا، فيقول فى ذلك: **(لولا أنَّ ذِكرَه علىَّ فرضٌ ما ذكرتُه؛ إجلالا له، مِثلى يذكرُه ولَم يغسل فمَه بألف توبة متقبَّلة عن ذكره!)**([2]).

وينشد الكتانىُّ ما يفيد أن هَمًّا يملكه أثناء الذكر؛ وسببه: هضم نفسه، وإجلاله لمقام ربه – تعالى- كما سبق. ثم يشير: إلى كمال استغراقه فى الذكر وإخلاصه فيه؛ حتى أن قلبَه وروحه وسرَّه تكون مشغولةً بالمذكور عما سواه، ومن شدة شغلها كأن رقيبا يراقب صاحبَها، خوفًا من انشغال القلب والسر والروح بغير المذكور، فينشد الكتانى فى ذلك:

ما إن ذكرتُك إلا همٌّ يغلبُنى  قلبى وسرّى ورُوحى عند ذكراكا

حتى كأنَّ رقيبا يهتف بى  إياك ويْحك والتذكار إياكا([3])

ولِعظمة مقام الذكر، يرى أن المداومة عليه فيها شبع للذاكر، ويمكنه الاستغناء بالذكر عن أقوات الناس، فيقول الكتانى فى ذلك:

---

([1]) راجع عن (الذكر): القشيرية وإحكام الدلالة، جـ ٣ صـ ١٥٤-١٦٧، جـ ٤ صـ ٧٣، والأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية. صـ ٢١-٣٢.

([2]) القشيرية ونتائج الأفكار، جـ ٣ صـ ١٦٢، وطبقات الأولياء، صـ ١٤٨، وتاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٦، ٢٥٧، وتاريخ بغداد وذيوله، جـ ٣ صـ ٢٨٩.

([3]) طبقات الأولياء، صـ ١٤٨.

**(الطَّعام المشتهَى: هو لُقمةٌ مِن ذِكر الله – تعالى-، إذا وُضعت فى فم اليقين، مأخوذةً فى حال التوحيد، من مائدة الرضا، بظنٍّ صحيح بإكرام الله – تعالى-)**[1].

## ٥- السَّماع

الكلام على الذكر عند الصوفية، غالبا ما يتبعه الكلام على "السماع" وآدابه؛ فالسماع عندهم: هو «واردُ حقٍّ يُزعج القلوبَ إلى الله – تعالى-»[2].

ومن آدابه: عدم تعمُّد حضور مجلسٍ من مجالس السماع، بدون إخلاص النية لله – تعالى- وتوقُّع المزيد فى الإرادة والطلب. ثم الحذر من أن تميل النفس إلى شىء من أهوائها، فالصادق فى السماع: يبتعد عن استدعاء الوجد، والحركة فيه، قدر طاقته، فالتواجُد[3]: إن كان باختيار صاحبه: فهو علامة على نقص عقله، ومع ذلك فليس بمحرَّمٍ، بل هو بدعة

---

(١) تذكرة الأولياء، صـ ٥١٣.

(٢) نُسب هذا التعريف: إلى "ذى النون المصرى"؛ كما فى اللمع، صـ ٣٤٢، كشف المحجوب، جـ ٢ صـ ٦٥٢. وذكر الهجويرى: أن المعنى: أن المستمع الحقيقى: من يسمع المعنى، لا الصوت، فإذا وصل المعنى إلى القلب: أزعجه، فإذا تابع القلبُ الحقَّ: صار محققا، وإذا تابع النفسَ والهوى: كان محجوبا.

(٣) "التواجد": هو استدعاء الوجد، أو أثر الوجد الباطن على الظاهر، وقيل: هو التكلف فى إتيان الوجد. و"الوَجد": حُرْقة تثُور وتقوَى من شهود أمر عارضٍ مُقلقٍ بالقلب، ويحصُل بعد التواجد. والوَجد: ألم للقلب، و"الوجود": إزالة غمٍّ عن القلب ومصادقته لمراده؛ فالتواجد: بداية، والوجود: نهاية، والوجد: واسطة. راجع: كشف المحجوب، ج٢ ص٦٦١، اللمع، ص٣٧٥-٣٨٩، الاعتصام، ج١ ص٢٣٠، ٢٣٧-٢٤٢، والقشيرية ونتائج الأفكار، جـ ٢ صـ ٤٢.

مكروهة، وإذا كان بغير اختياره: لم يوصَف بحُرمةٍ ولا كراهةٍ. وأشار الكتانى إلى أهم هذه الآداب بقوله:

**(المستمع يجب أن يكون فى سماعه غيرَ مستروحٍ إليه، يَهِيج منه السماعُ وَجدًا، أو شوقًا، أو غلبَةً أو واردًا، والوارد عليه يُفنيه عن كل حركةٍ وسكونٍ ومألوفٍ إليه.** وأنشد على أثره:

فالوجـدُ والشَّوق فى مكانى  قـد منعـانى مـن القرار

هُمـا معـى لا يفارقانـى  فـذا شعارى وذا دثارى)(١).

وبعض الصوفية(٢): ينقل عبارة الإمام الكتانى هكذا:

**(يتَّقى الصادقُ استدعاءَ الوجد، ويجتنب الحركة فيه قدر ما أمكن).**

ومراده بذلك: التفرقة بين "الوجود" و"التواجد".

ثم يقسم الكتانىُّ السماعَ إلى خمس مراتب:

الأولى: سماع العوام: وهو ما يكون بموافقة الطبع؛ أى طبع صاحبه الحيوانى ومألوفاته الشهوانية، فصاحبه يستجلبُه بغناء وآلات. وما دام هذا نعتُه، فالسماع يَطبَع على قلب صاحبه، فلا تؤثر فيه المواعظ.

الثانية: سماع المريدين: يسمعون بباعث العمل، فيستدعون الأحوالَ الشريفةَ؛ لأنهم يسمعون بباعث الخوف والرجاء أو الرغبة والرهبة، فيتكلفون فى سماعهم، لذا يُخشى عليهم الرياء والعجب.

الثالثة: سماع الأولياء: وسببه: ما هم فيه من نِعمَه – تعالى- التى غمرهم بها.

---

(١) الطبقات الصوفية، للسلمى، صـ ١٢٩، وعوارف المعارف، صـ ١٥٧، وتاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٩، وطبقات الأولياء، صـ ١٤٧.

(٢) هو: الدكتور/ محمد مصطفى، صـ ٩٣، نقلا عن: قوت القلوب، صـ ١٤٢.

الرابعة: سماع العارفين: وهم الذين يتأملون فيما يَرِد عليهم من واردات؛ كالقلَق والشوق وخوف الفراق أو فرحة الوصال والعتاب والخطاب، وغير ذلك، فالواردات ترد عليهم بواسطة من إلهام أو ملَك، فهؤلاء يتنعمون بما يتوالى عليهم من المشاهدة.

الخامسة: سماع أهل الحقيقة: وهم الذين يستغرقون فيما هم فيه من شُغل بالله، حتى لم يَروا ما عداه، بل سماعهم له ومنه وبه وإليه؛ فيسمعون ما يرد عليهم من الحق بلا واسطة(١).

يقول الكتانى فى ذلك:

**(سَماعُ العوامِّ: على متابعة الطَّبع، وسماع المُريدين: رغبة ورهبة، وسماع الأولياء: رؤية الآلاء والنِّعم، وسماع العارفين: على المشاهدة، وسماع أهل الحقيقة: على الكشف والعيان، ولكل واحدٍ من هؤلاء مصدرٌ ومقامٌ)(٢).**

وتختلف أحوال المستمعين والمتواجدين، باختلاف ما يَرِد عليهم من الحق – تعالى-، وباختلاف أحوالهم حال السماع، وباختلاف قوة قلوبهم أو ضعفها فى تحمل الوارد؛ فقيل: إن الأقوى: لا ينزعج عند ورود الوارد، ولا يتغير حاله؛ لِتمكُّنه، فإذا بدا منه تغيُّرٌ وانزعاجٌ فى أول الوارد: أعقبه سكون.

لكن السكون والحركة حالَ الاستماع: يختلف حكمهما باختلاف الوارد؛ فإذا كان الوارد ملائمًا للعقل: أدرك صاحبُه الواردَ وساكَنه، فلا

---

(١) راجع: اللمع، صـ ٣٤٤، ٣٤٩-٣٥١، ٣٥٦-٣٦٧، الرسالة القشيرية ونتائج الأفكار، جـ ٤ صـ ١٣٢-١٣٦.

(٢) الطبقات الصوفية، للسلمى، صـ ١٢٩، والكواكب الدرية، للمناوى، جـ ١ صـ ٥٩٨.

تظهر الحركة على صاحبه؛ بسبب تمكُّنه. وقد يكون الوارد قويًّا، يَضعف دونه فهم العقل له، فيتحرك صاحبه، وعليه: فتفضيل الحركة مطلقًا أو السكون مطلقًا: غير صواب؛ لاختلاف الوارد واختلاف الواجدين. هذه الأحكام لخصها الكتانى فى قوله:

**(الموارد ترِدُ، فتصادف شكلا أو موافقةً، فأىُّ وارد صادف شكلا: مازَجَه، وأىُّ وارد صادف موافقا: ساكنَه)**(١).

## سابعا: من ثمرات الطريق الصوفى عند "الإمام الكتانى"

### ١- "المَعرِفَـة"

لا شك أن الصوفىَّ إذا أخلص فى اجتياز مراحل الطريق، ظهر أثر ذلك عليه؛ فقد سبق تصريح الكتانى: بأن العبد إذا حقق التقوى: (أتته الفوائد) من الحق – تعالى-، ومن هذه الفوائد: "المعرفة".

و"المعرفة": هى جزمٌ ناشىء عن تكرُّر الدليل على قلب العارف(٢). واشتهر: مرادفتها للعلم وإن اختلفا فى الاستعمال؛ بحيث يقال: المعرفة: لإدراك الجزئىِّ والبسيط، والعلم: لإدراك الكلىِّ والمركب. وكثيرٌ من الصوفية يفرِّق بين العلم والمعرفة؛ فيرى: أن المعرفة أرقَى من العلم(٣)؛ إذ المعرفة: إدراكٌ مباشِر للشىء؛ لأن صاحبَها: من أهل العَيان، أما العالِم: فمن أهل البرهان، ومعلومها: لا يقبل الشكَّ؛ خاصة إذا كان هذا المعلوم:

---

(١) الطبقات الصوفية، للسلمى، صـ ١٢٩، وانظر: اللمع، صـ ٣٨٣، ٣٨٤.

(٢) انظر: حاشية الدسوقى على أم البراهين، صـ ٣٠، مكتبة المشهد الحسينى، بدون تاريخ.

(٣) انظر: التعرف لمذهب أهل التصوف، صـ ٧٩، ٨٠، الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية، صـ ٣٢٢-٣٢٣. ونتائج الأفكار، جـ ٤ صـ ٦٠.

هو ذات الله – تعالى- وصفاته.

وليس الكل مؤهَّلا لمعرفته – تعالى-، بل لله عباد شَغلَهم بخدمته، وخصَّهم بمعرفته، ومَن سواهُم حُرم هذا الشرف؛ وفى ذلك يقول الكتانى:

**(إن الله نظر إلى بعض عَبيده، فوجدَهم لا يَصلحون لمجالسته، - وفى رواية: فلَم يرَهم أهلا لمعرفته -، فشغلهم بخدمته)**[1].

هذه مقدمة ضرورية لفهم قول الإمام الكتانى:

**(المعرفةُ بالله، أتمُّ وأكملُ من العبادة لَه)**[2]؛ ويُشْبه ذلك من كلام الصوفية: قول "النُّوريِّ": (ساعةٌ من العارف على المولَى، أكرمُ من تعبُّد المتعبدين ألف سنة)[3]؛ ولِكلامهم هذا شاهد من الشرع؛ هو قوله ﷺ: (... فضل العالِم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب)، وفى رواية: (كفضلى على أدناكم)[4]، ففيه تفضيلٌ صريحٌ للعلم – ومن باب أَولى تفضيل المعرفة - على العبادة.

ولا يفيد ذلك: الدعوة إلى عدم الاهتمام بالعبادات، بل التلازم بينهما ثابت عند أهل الطريق؛ «لأن مَن عرف الله، لا يستغنى عن النظر فى عباداته؛ ليُوقعَها له بحسب طلبها»[5]، فمن ثمرات المعرفة عند الصوفية: أنها «توجِب غيبةَ العبد عن نفسه؛ لاستيلاء ذكر الحق – تعالى – عليه،

---

(1) الطبقات الصوفية، صـ ١٢٩، والكواكب الدرية، جـ ١ صـ ٥٩٧، ٥٩٨.

(2) تذكرة الأولياء، ص٥١٣، وانظر: الطبقات الصوفية، صـ ١٣٠، وحلية، ج١٣ ص٣٥٨.

(3) نفحات الأنس، صـ ٢٥٥.

(4) الحديث – بروايتَيه -: أخرجه الإمام الترمذى فى سننه، جـ ٥ صـ ٤٨، ٥٠ وقال: (هذا حديث حسن صحيح غريب). وانظر: نتائج الأفكار القدسية، جـ ٤ صـ ٦٠.

(5) إحكام الدلالة على تحرير الرسالة، جـ ٤ صـ ٦٥.

فلا يشهد غيرَ الله – عز وجلَّ – من سائر المخلوقات، ولا يرجع فى مُهماته إلى غيره – تعالى-»[1]، كما سبق قولُهم بالتلازم بين العلم والعمل.

والتلازم المشار إليه بين المعرفة والعبادة، صرح به الكتانى حين سُئل:

**(مَن العارِف؟ فقال: مَن يوافق معروفَه فى أوامره، ولا يخالفه فى شىء من أحواله، يتحبَّب إليه بمحبة أوليائه، ولا يفتر عن ذكره طرفةَ عين)[2].**

فما يوهمُه قوله بأن معرفته – تعالى- أتمُّ وأكملُ من عبادته، من عدم الاهتمام بالتكاليف الشرعية: غير مراد من كلام الكتانى؛ بدليل عباداته واجتهاداته، ودعوته إلى العمل، الآتى تفصيلها فى موضعها.

ومن كمال المعرفة: أن يعرف العبد ربَّه وأوامرَه، فإذا كانت هذه المعرفة كاملةً: فإن العبد كامل بكمالها، وقلبه حىٌّ بهذا الكمال، وإلا نقص بنقصانها؛ يقول الكتانى فى ذلك:

«سُئل "أبو سعيد الخراز": هل يصير العارف إلى حالٍ يجفو عليه البكاء "أى يَبعد عنه" ؟ فقال: نعم، إنما البكاء "من العارفين" فى أوقات سَيرهم إلى الله – تعالى-؛ "لِتعلُّق همَّتهم بوصولهم إليه، فلا يزالون فيها يَبكون ويتضرعون ويتوسلون، حتى يصِلوا إليه، وينزلوا بمقام القُرب"، فإذا نزلوا إلى حقائق القُرب[3]، وذاقوا طَعم الوصل من بِرِّه – تعالى-

---

([1]) الرسالة القشيرية مع إحكام الدلالة، جـ ٤ صـ ٦٥.

([2]) الطبقات الصوفية، صـ ١٢٩، والكواكب الدرية، جـ ١ صـ ٥٩٨.

([3]) أى قرب المكانة، لا قرب المكان. انظر: الرسالة القشيرية مع إحكام الدلالة، جـ ٤ صـ ٧٧، ٧٨.

"وكرمه"، زال عنهم ذلك، "وبقىَ فى قلبه خدمة مولاه وتعظيمه"».

وللإمام الكتانى ابتهالٌ ودعاء رقيق، ذكر أنه تلقاه عن النبى ﷺ منامًا، يقول الكتانى: (كان فى رأسى وجَعٌ، فرأيتُ المصطفَى ﷺ، فقال: اكتُب هذا الدعاء:

**اللهم بثُبوت الرُّبوبية وبعظيم الصمدانية، وبسطَوات الإلهية، وبقِدَم الجبرُوتية، وبقُدرة الوحدانية. قال: فكتبتُه وجعلتُه على رأسى، فسكَن حالا)(١):**

ففيه إشارة إلى إثبات الذات الإلهية، وصفاتها.

وفيه أيضا: القول بجواز التلقَّى عنه ﷺ منامًا، واعتباره الرؤَى من وسائل المعرفة وتنبيهه – تعالى- لأوليائه:

أما اعتباره الرؤَى من وسائل المعرفة وتنبيهه – تعالى- لأوليائه: فقد ذكر مؤرخو الصوفية نماذج لرؤى كثيرة عن الإمام الكتانى؛ من ذلك:

قول الكتانى: «رأيتُ النبىَّ ﷺ فى عادتى(٢) - فكانت العادة قد جرَت له: أنه كان يرى النبىَّ ﷺ كلَّ ليلة اثنين وخميس، فيسأله [أسئلةً]، فيجيبه عنها -، قال: فرأيتُه قد أقبل علىَّ ومعه أربعة نفر، ... أبو بكر،... عمر،... عثمان،... عَلىّ،... فآخَى ﷺ بينى وبين علىّ ﷺ، ثم أخذ علىٌّ ﷺ بيدى، وقال لى: يا أبا بكر، قُم حتى تخرجَ إلى [جبل] الصفا، فخرجتُ معه

---

(١) الكواكب الدرية، للمناوى، جـ ١ صـ ٥٩٩. مع ملاحظة: أن تسميته دعاء: توسُّع، بل هو ذكر المتوسَّل به فقط.

(٢) ذكر فى (حلية الأولياء، جـ ١٣ صـ ٣٤٣): أن الكتانى سُئل عن عدد المَرَّات التى رأى فيها النبىَّ ﷺ؟ فأجاب: بأنها قريب من السبعمائة.

إلى الصفا. وكنتُ نائما فى حُجرتى، فاستيقظتُ، فإذا أنا علَى الصفا»(١).

ومنها: ما ذكره مشايخ الصوفية: أن «الكتانىَّ من تلامذة محمد رسول الله ﷺ؛ لأنه إذا أراد شيئا، سأل النبىَّ ﷺ فى المنام، وكان يعلَم الليلةَ التى يرى فيها النبىَّ ﷺ، فوقتٌ قال له النبى ﷺ: من يقرأ كلَّ يوم إحدى وأربعين مرة هذه الأسماء، لا يموت قلبُه يوم تموت قلوب الناس كلها؛ وهى هذه: يا حىُّ يا قيُّوم لا إله إلا أنت»(٢).

وقال الكتانى أيضا: «رأيتُ النبىَّ ﷺ فى المنام، فقال لى: من تزيَّن للناس بشىء يعلَم الله منه خلافَه، شانَه الله.

وقال الكتانى أيضا: رأيت النبىَّ ﷺ فى المنام، فقلت: ادعُ اللهَ ألا يميت قلبى، فقال لى: قل كل يوم أربعين مرة(٣): يا حىُّ يا قيوم لا إله إلا أنت فإنه لا يموت قلبك، ويكون قلبُك حيا»(٤).

وقال الكتانىَّ: (رأيت النبىَّ ﷺ فى المنام، وهو [أشعث أغبر]، وعليه جُبة صوف قصيرة إلى أنصاف ساقَيه، دنِسة، محلولَ الإزار، كثير شعر الرأس، حاسر، حافىَ القدمَين. فساءنى منظره ذلك؛ لأننى لم أره قط على تلك الحال، فاغتممتُ لذلك غمًّا شديدا، وقد كان "أبو حمزة؛ محمد بن

---

(١) التعرف، صـ ١٧٩، ١٨٠. ولا يخفى ما يشير إليه (الصفا)، علَى (الصفاء) عند الصوفية؛ على ما سبق توضيحه. وقارن: دراسات فى التصوف الإسلامى شخصيات ومذاهب، صـ ٣٦٣، ٣٦٤.

(٢) نفحات الأنس، للجامى، جـ ١ صـ ٢٦٤، ٢٦٥.

(٣) ذكر أبو بكر الخوارزمى: أن النبى – صلى الله عليه وسلم – أمر الكتانىَّ أن يقولَها كلَّ يومٍ سبعين مرة. انظر: مفيد العلوم ومبيد الهموم، صـ ١٧١.

(٤) الرسالة القشيرية، جـ ٤ صـ ١٩٥، طبقات الأولياء، لابن الملقن، صـ ١٤٥، والكواكب الدرية، جـ ١ صـ ١٩٨.

إبراهيم" حدثنى مرة: أن منامات أصحابنا لا يعبّرها غيرُهم؛ لأنها على حسب أحوالهم ومقاماتهم، فقصدتُ "أبا حمزةَ" وقصصتُ عليه رؤياى وغمّى بذلك، فقال: لا يغمُّك ما رأيتَ، تراءَى لك رسول الله ﷺ فى صورةِ واعظٍ منذرٍ فقال: هكذا كُن، وبى فاقْتدِ، وعلى هذا فالقَنى. فسرَّى عنِّى ذلك)(١).

ويذكر العلامة النَّظار "أبو إسحاق الشاطبى، ت ٧٩٠هـ": بعضَ هذه الحكايات فى سياقها؛ فيقول: «... الرؤيا من غير الأنبياء: لا يُحكم بها شرعًا، إلا أن تُعرَض على ما فى أيدينا من الأحكام الشرعية، فإن سوَّغتها: عُمل بمقتضاها، وإلا وجب تركها والإعراض عنها، وإنما فائدتها: البشارة أو النذارة خاصة؛ كما يُحكَى عن الكتانى – رحمه الله- قل: رأيتُ النبىَّ ﷺ فى المنام، فقلتُ: ادعُ اللهَ ألا يميتَ قلبى، فقال: قُل كلَّ يوم أربعين مرة: "يا حىُّ يا قيوم لا إله إلا أنت"، فهذا كلام حسَن لا إشكال فى صحته...»(٢)، وهذا الكلام "للعلامة الشاطبى" مع وجازته: جمع خلاصة ما يقال عن الرُّؤى؛ وأذكر تعقيبًا موجزًا يتعلق بها فأقول:

إن حديث الصوفية عن الرؤَى وأنها من مظاهر لُطفه – تعالى- بأوليائه: مبسوطٌ فى غير موضع(٣)، ويكفى فى إثبات الرؤيا: ما قصَّه – تعالى- فى قصة سيدنا يوسف – عليه السلام – بقوله: ﴿ **وَدَخَلَ مَعَهُ**

---

(١) تاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٣.

(٢) الاعتصام، للعلامة/ أبى إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبى، جـ ١ صـ ٢٢٥، ٢٢٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩م.

(٣) انظر مثلا: التعرف لمذهب أهل التصوف، صـ ١٧٩-١٨٢، الرسالة القشيرية مع إحكام الدلالة ونتائج الأفكار، جـ ٤ صـ ١٩٠-٢٠٢

ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ ﴾[1] الآيات.

و"الرؤيا": فكرٌ يقوم بجزءٍ من القلب لا يقوم به نوم، وقد يغلب الفكر والخيال على مشغول عن درك المحسوسات, فيتمثل له ما فيه الفكر مثالاً مرئياً بين يديه. وقد تكون من حديث النفس والتخيُّلات، وقد تكون تمثيلا من الشيطان، وقد تكون تمثيلا من المَلَك. ورؤيا الملَك: هى المقصودة والمعوَّل عليها[2].

فمرادهم بـ"الرؤيا": الرؤيا الحسَنة، وهى رؤيا الملَك، وهى قد تكون لإشارة الترغيب، أو الترهيب، ورؤيا الملَك: هو المقول فيها من طرف الشريعة: "إنها جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة[3]". و«الرؤيا الحسنة: هى أن يخلُق – تعالى- فى قلب النائم أو فى حواسه الأشياءَ كما يخلقها فى اليقظان، فربما يقع ذلك فى اليقظة»[4]، كما استيقظ الإمام

---

([1]) سورة (يوسف)، من الآية رقم (٣٦).

([2]) شرح معالم أصول الدين، لشرف الدين ابن التلمسانى، صـ ٤٩٤ بتصرف، تقديم وتحقيق وتعليق: د/ عواد محمود عواد، نشر: المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م. وانظر: إحياء علوم الدين، جـ ٤ صـ ٥٣٦، المطالب القدسية فى أحكام الروح وآثارها الكونية، للشيخ/ محمد حسنين مخلوف العدوى، صـ ٧٣-٧٧، مطبعة المعاهد بالقاهرة، ومصطفى الحلبى، بدون تاريخ.

([3]) أخرجه البخارى فى صحيحه (مع فتح البارى)، جـ ١٢ صـ ٣٦٢ - كتاب: التعبير- باب: رؤيا الصالحين، وفى رواية الإمام مسلم: (جزء من خمسة وأربعين جزءا)، وتوجَد روايات غير ذلك، ولها تفسيرات كثيرة؛ راجعها فى: شرح النووى، جـ ١٥ صـ ٢٠، ٢١، نشر: دار إحياء التراث العربى– بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ. ثم راجع: التعرف لمذهب أهل التصوف، صـ ١٧٩-١٨٢، الرسالة القشيرية مع إحكام الدلالة ونتائج الأفكار، جـ ٤ صـ ١٩٠-٢٠٢.

([4]) الرسالة القشيرية، جـ ٤ صـ ١٩١.

الكتانى فرأى نفسَه على "جبل الصفا" فى الرؤيا السابق ذكرها، فالمرئىُّ: «ربما يقع ذلك فى اليقظة كما رآه، وربما جعل ما رآه عَلَمًا على أُمور أُخر يخلقها فى ثانى الحال، أو كان قد خلقها، فتقع تلك؛ كما جعل الله الغَيم علامةً للمطر»(١)، فصلاحها: إما باعتبار صورتها، أو تعبيرها.

والرؤيا الصادقة التى تُرى فى النوم: تفيد وجودَ طَوْرٍ آخر وراء العقل، ليس من قَبيل المعارف الحسية ولا العقلية تدرَك به المغيَّبات(٢)، وتساعد على التسليم: بأن طريق التصفية يُفضى إلى المكاشفة واليقين.

لكن هل يَثبت بهذه الرؤى حكم شرعىٌّ؟ يرى المحققون: أنها إن وافقت الشرعَ: عُمل بها، وإلا فلا، على ما سبق نقله عن "العلامة الشاطبى".

وأما تلقِّى الصوفية من النبى ﷺ منامًا:

فإن رؤيتَه ﷺ منامًا: ثابتةٌ بقوله ﷺ فى الحديث: (من رآنى فى المنام فسيرانى فى اليقظة، ولا يتمثل الشيطان بى)(٣). وأما رؤيته ﷺ يقظةً: فقد حكى "الشعرانى": وقوعَها لـ"الإمام السيوطى" وغيره(٤). وألَّف "الإمام السيوطىُّ" رسالة سماها: (تنوير الحلَك فى إمكان رؤية النبى والملَك)؛ ذكر فيها: من كان يجتمع بالنبى ﷺ والملَك - يقظةً لا منامًا - من الصحابة

---

(١) إحكام الدلالة، ج٤ ص١٩١، وانظر: شرح النووى على صحيح مسلم، ج١٥ ص١٧.

(٢) انظر: المنقذ من الضلال، للإمام الغزالى، ومعه: أبحاث فى التصوف، للشيخ/ عبد الحليم محمود، صـ ١٤٦، نشر: دار الكتب الحديثة، الطبعة الثامنة، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

(٣) الحديث: أخرجه البخارى فى صحيحه، جـ ١٠ صـ ١٠٥. الحديث رقم ٦٩٩٣. كتاب: التعبير- باب: من رأى النبىَّ ﷺ فى المنام، وانظر: الاعتصام، جـ ١ صـ ٢٢٧، ٢٢٨.

(٤) الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية، للشعرانى صـ ١٩، ٢٠.

والعلماء والأولياء ﷺ.

وهل هى رؤية لِذَاته ﷻ بجسمه وروحه أو رؤية لمثاله؟ يقول الشيخ "محمد حسنين مخلوف" فى هذه المسألة: «الذى يُرى خارجَ القبر وينتقل إلى الجهات: إنما هو مثالُه ﷻ وصورته، لا جسمه وبدنه،... فرؤيته ﷻ فى اليقظة ومخاطبته: مقام عالٍ وسرٌّ ربانىٌّ، متى انكشف: استتر، ومتى ظهر: خفِىَ»(١).

ومن ثمرات المعرفة:

أن يحصُل اليقين فى القلب، فتنتفىَ عنه الظُّنون والأمانى، ويحلَّ الجزمُ محلَّها؛ إذ اليقين عندهم: «ظُهور نُور الحقيقة فى قلب الموفَّق عند كشف الأستار البشرية بشهادة الوجد والذوق؛ لا بدلالة العقل والنقل، وذلك يحصُل بالجَزم ومطابقة الواقع. ويطلَق اليقين مجازًا: على نتيجة ذلك؛ وهى اطمئنان القلب ووثوقه بموعود الله – تعالى-»(٢)؛ وهذا مراد الكتانى من قوله:

**(حقائقُ الحقِّ إذا تجلَّت لسرٍّ(٣): أزالت عنه الظُّنونَ والأمانىَّ؛ لأن الحقَّ إذا استولَى على سرٍّ: قهَره، ولا يبقى للغير معه أثر)(٤).**

---

(١) المطالب القدسية فى أحكام الروح وآثارها الكونية، صـ ١٥٥، ١٥٦.

(٢) الفتوحات الإلهية فى نفع أرواح الذوات الإنسانية، لشيخ الإسلام/ زكريا الأنصارى، تحقيق: تامر محمد حلمى، صـ ٧١، ٧٢، نشر: دار البصائر، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م. وانظر: نتائج الأفكار القدسية، جـ ٢ صـ ٩٩، ١٠١، جـ ٣ صـ ٧٣-٨٣.

(٣) **"السرُّ"** عند الصوفية: القوة المستعدة لتمكين العلم والمعرفة. وهو لطيفة ربانية تصفو من شوائب الحواس حتى صارت معنًى محضًا. راجع: عوارف المعارف، صـ ٢٩٢، والمطالب القدسية، صـ ١٢-١٣.

(٤) الطبقات الصوفية، صـ ١٣٠، وحلية الأولياء، جـ ١٣ صـ ٣٥٨.

ومن ثمراتها أيضا: ما يُفيضه الله – تعالى- على قلوب العارفين من علومٍ ومعارف وأسرار، فلا ينطقون إلا بالله؛ حكاها الكتانى فى قوله:

(سمعتُ "أبا سعيد الخراز" يقول: للعارفين خزائن أودعوها علومًا غريبةً، وأنباء عجيبة، يتكلمون فيها بلسان الأبدية، ويُخبرون عنها بعبارة الأزلية. قال [الكتانى]: وقال "أبو سعيد": لولا أن اللهَ أدخلَ موسى ﷺ فى كنَفه، لأصابه مثل ما أصاب الجبل)([1]).

ومما يدور فى الكلام عن "المعرفة" عند الصوفية: الكلام على: الفِراسة، والمعايَنة، والمكاشَفة، والشُّهود، والمشاهَدة. وأعرِّف بها فيما يلى.

**"الفِراسَة"**:

"الفِرَاسَةُ": من الألفاظ التى تدور عند الكلام على "المعرفة" عند الصوفية خاصة، ويرى الكتانى: أن الفراسة تُثمر: مكاشفةَ اليقين؛ لأن المستفاد منها: علوم مصدرها إلىٌّ، تشرق فى بصائر القلوب، يقول فى ذلك:

**(الفِراسة: مُكاشَفة اليقين، ومُعايَنة الغَيب، وهو من مقامات الإيمان)([2]).**

والفِراسة - بكسر الفاء - فى اللغة: مِن تفرَّستُ فيه خيرًا، وهو يتفرَّس؛ أى يتثبَّت وينظر. وهى عند القوم: سواطع أنوارٍ لمعَت فى القلوب، ومكين معرفةٍ حملت السرائر فى الغيوب، حتى يشهد بها العارف

---

([1]) طبقات الصوفية، صـ ١٨٦، وعوارف المعارف، صـ ٣٣٠.

([2]) القشيرية، جـ ٣ صـ ١٧٦، وانظر: نتائج الأفكار، بنفس الصفحة.

الأشياء من حيث أشهده الحق إياها، فيتكلم عن ضمير الخلق، فهو لقوة إدراك بصيرته: قوِىَ نور قلبه، فأطلعه الله على ما فى ضمائر الناس(١).

وللفراسة أصل فى القرآن والسنة؛ فمن القرآن: قوله – تعالى-: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾(٢)؛ أى للناظرين المتفرّسين(٣)، فالتفرُّس يطلق فى اللغة أيضا: على التوسُّم؛ من السِّمة: وهى العلامة. ومن السنة: خبر (اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)(٤)، فهذا النور حصل للمؤمن بصفاء سرِّه، فصار سرُّه كالمرآة المَصقولة ينتقش فيها من صور الأشياء الغائبة عن غيره.

ومقولة الإمام الكتانى المذكورة: اشتملت على لفظتَى **(المكاشَفة، والمعايَنة)**، وهما أيضا من الألفاظ الواردة عند الصوفية فى كلامهم عن المعرفة.

ويعنون بـ**"المكاشفة":** (حُضور القلب مع الحق – تعالى- بنَعْت

---

(١) انظر: القشيرية، ج١ ص١٣٤، ج٤ ص١٧٤، ولسان العرب، لابن منظور، جـ ٦ صـ ١٥٩، دار صادر- بيروت.

(٢) سورة: (الحجر)، الآية رقم (٧٥).

(٣) انظر: لطائف المنن والأخلاق فى بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق (المنن الكبرى)، للشعرانى، جـ ١ صـ ٢٦٧، المطبعة العامرة العثمانية، ١٣١١هـ.

(٤) الحديث: رواه الترمذى فى سننه. جـ ٥ صـ ٢٩٨، الحديث رقم ٣١٢٧ - أبواب: تفسير القرآن- باب: ومن سورة الحجر، وقال: حديث غريب. قلت: وهذا الحديث ذكره (ابن الجوزى) فى الموضوعات، وتُعُقِّب: بأنه قد رُوى – بنحوه - بسند حسن عند البزار وأبى نعيم والطبرانى، فلا يليق مع وجوده: الحكم على الحديث بالوضع ولا بالضعف. راجع: المقاصد الحسنة، لشمس الدين السخاوى، صـ ٥٩، ٦٠، دار الكتاب العربى، بدون تاريخ.

البيان التامِّ بالبرهان). و"البيان التامُّ": هو نتيجة البرهان وثمرته؛ فالمكاشفة لصاحبها: كالعلم الضروريّ الذى لا قدرة له على دفعه عن نفسه، فلا افتقار فيها إلى تأمل الدليل؛ لعدم تطرُّق دواعى الشك لقلب صاحبها؛ لأنه يستغنى عن تكرُّر النظر فى البرهان، اكتفاءً بيقين ثمرته من البيان.

أما **"المعاينة":** فهى (تحقيق معرفة الذات التى لا يصحُّ مع وجودها وجود الغير).

وبقى الكلام عن **"الشُّهود"، و"المشاهدة"،** فقد ورد ذكرهما فى كلام الكتانى غير مرة؛ كقوله سابقا: (وجُود العطاء من الحق: شهودُ الحقِّ بالحقِّ)(١)، وكقوله فى تعريف التصوف: هو (الصَّفوة والمشاهدة)(٢)، وهما من المصطلحات التى تدور فى كلامهم عن المعرفة:

فـ**"الشُّهود":** عند الصوفية: (دوام استحضار صفاته – تعالى- بصفات الجلال ونُعوت الإكرام).

و**"المشاهدة":** هى (وُجود الحق – تعالى- بلا تُهمةٍ لما شاهَده من الكمال، وقيل: هى رؤية الأشياء بأدلة التوحيد، أو رؤيته – تعالى- فى الأشياء)؛ أى رؤية آثاره – تعالى- فى مخلوقاته، وأنه – تعالى- سبب وجودها أو إفنائها(٣).

---

(١) الطبقات الصوفية، للسلمى، صـ ١٢٩، وحلية الأولياء، جـ ١٣ صـ ٣٥٨.

(٢) تذكرة الأولياء، صـ ٥١٣.

(٣) عرَّف الإمام الغزالى **المكاشفة:** بأنها «رفع الشُّبهة عن القلب فى ميدان المعرفة»، ويقول عنها: «والمكاشفة نُور مع نُورٍ»، ويعرف **الشهود والمشاهدة:** بأنها «الرؤية المعجَّلة»، أو «حضور السر مع الحق فى مقام الخلوة الملكوتى». ثلاث رسائل فى

ومما ذكروه من فِراسة الكتانى:

قول أبى (الحسين المزين – رحمه الله -: دخلتُ البادية بلا زادٍ ولا راحلة، ووصلتُ بعد زمان إلى جومة ماء، فجلستُ هناك، وقلتُ فى نفسى: قطعتُ البادية بلا ماءٍ وراحلةٍ! فصاح علىَّ إنسان وقال: "يا حجَّام، لا تحدِّث نفسَك بالأباطيل"، نظرتُ إليه، فإذا هو أبو بكر الكتانىِّ – رحمه الله -، فتُبتُ عن هذا الفكر، ورجعتُ إلى الله – تعالى-)(١).

وقوله سابقا: (حدثنى قلبى عن الله – تعالى-): صريحٌ فى اعترافه بـ**"الإلهام"** الصوفى؛ على ما سبق عند ذكر الاعتراض على هذه المقولة وردِّه.

و**الإلهام** إن صدر عن غير معصوم: فليس بحُجة؛ لعدم الثقة بخواطر صاحبه، فهو لا يأمن من دَسيسة الشيطان فى خواطره هذه.

**٢- الوِلايَة – مراتب الأولياء**

"الولاية" من ثمرات الطريق أيضا، وأشار "الكتانى" فى كلامه: إلى الولاية وإلى كرامات الأولياء؛ فيقول عن التوبة: هى (البُعد عن المذمومات كلِّها، إلى الممدوحات كلِّها، ثم المكابَدات، ثم المجاهدات، ثم التَّبات، ثم الرَّشاد. **ثم يُدرك من الله الولايةَ وحُسن المعُونة)(٢).**

---

المعرفة، للإمام/ الغزالى، تحقيق: د/ محمود حمدى زقزوق، صـ ٤٩، ٥٢، ٥٣، الطبعة الأولى،١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، ط الأزهر. وانظر عن (المكاشفة، والمعاينة، والشهود، والمشاهدة): اللمع، صـ ١٠٠-١٠٤، القشيرية، جـ ٢ ص٧٩-٨٢، وعوارف المعارف، صـ ٣٣٣.

(١) تذكرة الأولياء، صـ ٥٠٩، وانظر: التعرف لمذهب أهل التصوف، صـ ١٧٨، وحلية الأولياء، جـ ١٣ صـ ١٤٠، ونتائج الأفكار، جـ ١ صـ ١٩٦.

(٢) تاريخ دمشق، جـ ٥٤ صـ ٢٥٣، ٢٥٤، تاريخ بغداد وذيوله، جـ ٣ صـ ٢٨٨.

وأذكُر أوَّلا: تعريفَ "الوليِّ" و"الكرامة"؛ فالولى: هو (هو مَن توالت طاعاته لربه وارتفعت درجات قربه، وهو حال الولى المتوسط بين الله – تعالى- وبين عباده). أو هو: (الذى توالت عليه النعم من ربه، وتوالى عليه أيضا الحفظ له فى قلبه وجوارحه من الزَّلات، وهو حال الولى المنقطع إلى مولاه). والكرامة: هى (ظهور أمر خارقٍ للعادة - كالمشى على الماء أو الهواء، وكلام الجماد - على يد الوليِّ غير مقارن لدعوى النبوة)(١).

وأما الكرامات: فقد قال الكتانى:

(رأيتُ بعضَ الصوفية، وكان غريبا؛ ما كنتُ أعرفه، قد تقدم على الكعبة وقال: يارب ما أدرى ما يقول هؤلاء؛ يعنى الطائفين؟ فقيل له: انظر ما فى هذه الرقعة، قال: فطارت الرقعة فى الهواء وغابت)(٢).

فالرُّقعة ما طارت إلا بعد ما نظر فيها، وأيقن أن الله – تعالى- قضى حاجتَه، وأكرمه بالقبول مع جملة الطائفين، فقوى يقينه بذلك، «والكرامة فى ذلك: تيسير مَن أعلمه بذلك حالا، وطيران الرقعة، مع غيبتها»(٣). وسؤاله هنا يعنى: ما أدرى قول الطائفين إذا شاهدوا منَنَه – تعالى- وعطاياه لهم.

وكرامة أخرى:

هى انقياد السباع المفترسة له، وبُروكها بين يديه، وفهمه حاجتها،

---

(١) راجع عن (الكرامة، والولى): القشيرية وإحكام الدلالة، ج٣ ص٢١٠، ج٤ ص١٤٦. والحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية، للدكتور/ عبد الفتاح بركة، ج٢ ص٥ وما بعدها، مجمع البحوث الإسلامية، بدون تاريخ.

(٢) الرسالة القشيرية، جـ ٤ صـ ١٨١.

(٣) إحكام الدلالة، جـ ٤ صـ ١٨١. وانظر: نتائج الأفكار، بنفس الصفحة.

وسعيه فى قضاء حاجتها، وشكرها له؛ فيذكر الكتانى:

أن سبعًا عظيمًا أقبل عليه وهو بالبادية، فاستسلم الكتانى للسبع، فبرك السبع بين يدى الكتانى، ووضع يده فى حجره؛ كأنه يشكو له، فنظر الكتانى، فوجد يدَ السبع منتفخة، فيها قيح ودم، فشق الكتانى موضع القيح، وطهَّره، وشدَّ عليه خرقة، فمضى السبع لحاله، ثم رجع إلى الكتانى، ومعه ولدان له، فحركا أذنابهما بين يديه، وحملا رغيفًا للكتانى؛ مجازاة على حُسن صنيعه بأبيهما(١).

واشتهر أن أوَّل من ذكر مراتب للأولياء وعيَّن أماكنَهم: هو الكتانى، واعتبره بعض الباحثين(٢) مجدِّدًا من هذه الناحية؛ يقول الكتانى فى ذلك:

(النُّقباء: ثلاثمائة، والنُّجباء: سبعون، والأبدال: أربعون، والأخيار: سبعة، والعُمد أربعة، والغوثُ: واحد. فمسكن النقباء: المغرب، ومسكن النجباء: مصر، ومسكن الأبدال: الشام، والأخيار: سيَّاحون فى الأرض، والعُمداء: فى زوايا الأرض، ومسكن الغوث: مكة، فإذا عَرضت الحاجةُ من أمر العامَّة: ابتهل فيها النقباء، ثم النجباء، ثم الأبدال، ثم الأخيار، ثم العمداء، فإن أُجيبوا، وإلا ابتهل الغوث، فلا يتم مسألته حتى تجاب دعوته)(٣).

واختلفت نظرة المتأخرين عن الكتانى إلى كلامه المذكور، ما بين متهمٍ بأن مصدر هذا الترتيب: هو الفكر "الاسماعيليُّ الشيعيُّ" لا غير،

---

(١) الرسالة القشيرية، جـ ٤ صـ ١٨٥، ١٨٦.

(٢) هو: الدكتور/ محمد جلال شرف؛ فى كتابه: دراسات فى التصوف، صـ ٣٥٢.

(٣) تاريخ بغداد وذيوله، جـ ٣ صـ ٢٨٩، وطبقات الأولياء، صـ ١٤٤، والطبقات الكبرى، للشعرانى، جـ ١ صـ ٩٤.

وما بين منتصر مؤيّد له، وأنبّه على أنّي في هذا المقام: أحاول تقريرَ كلام الصوفية فى ذلك على الوجه المذكور عندهم، مع التعليق والتعقيب عليه؛ فقد ذكروا هذه المراتب، مع بعض توضيح، أذكره باختصار:

١- الأفراد: هُم الرجال الخارجون عن نظر القطب؛ و«هُم الذين على بيّنةٍ من ربهم ويتلوهم شاهد منهم، وهم فى هذه الأمة: بمنزلة الأنبياء فى الأمم الخالية؛ الذين كانوا على شريعةٍ من ربهم فى أنفسهم، ليسوا برُسل، ولا متَّبعين إلا ما يوحِى به الحق – سبحانه-... وهم أعيان الأولياء»(١).

٢- القُطب؛ ويقال له "الغوث": هو الواحد الذى هو محلُّ نظر الله – تعالى- إليه من العالم فى كل زمان(٢).

٣- الغوث: واحد الزمان بعينه إن كان الوقت يعطى الالتجاء إلى عنايته، وإلا فهو القطب؛ بمعنى: أن القطب قد يسمَّى بـ"الغوث": إذا التجأ إليه كل ملهوف؛ فالقطب الغوث: رجل عظيم يحتاج الناس إليه عند الاضطرار إلى معرفة ما خفى عليهم من علوم وأسرار مبهَمة، وإذا مات: خلَفه واحد من الأوتاد أو الأبدال(٣).

واتفق الصوفية: على أن الأقطاب يَحملون أثقال الخلق، ولهم

---

(١) التنزُّلات الليلية فى الأحكام الإلهية، للشيخ الأكبر/ محيى الدين بن عربى، قدم لها وعلق عليها: عبد الرحمن حسن محمود، صـ ٦٣، نشر: عالم الفكر، بدون تاريخ.

(٢) «قُطبُ القَوم: سيّدُهم الذى يدور عليه أمرُهم». مختار الصحاح، صـ ٥٤١.

(٣) انظر: أبو الحسن الشاذلى، لعلى سالم عمار، جـ ١ صـ ١٩٢، مطبعة دار التأليف، الطبعة الأولى، ١٩٥١م. ثم انظر فى تعريف (القطب) تفصيلا: الفتوحات المكية، جـ ٢ صـ ٥٧٣، جـ ٤ صـ ٧٤ وما بعدها.

التصرف فى الكون بإرادته – تعالى-.

وقيل: لكل مقامٍ قُطب، ولكل حالٍ قُطب، وحينئذ يكون القطب الغوث: هو الأستاذ الأكبر.

وأضفى بعضهم(١) على القطب الغَوث: صفات لا تكون فى طاقة البشر؛ كاشتراط عِلمه بكل معلوم، وعلمه بالعلم المحيط بكل عِلم!!

ويقطع مشايخ الصوفية بوجود هذه المراتب، وحرمان من ينكرها؛ فيُسأل "شيخ الإسلا/ زكريا الأنصارى": عمَّن ادعى عدمَ وجود القطب؟ فيجيب: «القُطب موجود فى كل زمانٍ، كلما مات قُطب: أقام الله مقامَه آخر، نفعنا الله ببركتهم، وهذا أمر مشهور، والمنكر لذلك: محروم من بركة الأقطاب، معترف بأن منَّة الله بلقائهم لم تواجههُ، ولَيته إذا فاته الوصول إليها: لا يفوته الإيمان بها»(٢).

٤- الأَوتاد: أربعة رجالٍ، منازلهم على منازل الأركان الأربعة من العالم: شرق وغرب وشمال وجنوب، مقام كل واحد منهم تلك الجهة؛ بمعنى أن الأوتاد يُحفَظ بهم الدين من الأركان المذكورة(٣).

٥- الأبدال: قوم صالحون لا تخلو الدنيا منهم؛ إذا مات منهم واحد أبدل الله مكانه آخر، وهم سبعة. ذهب الصوفية: إلى أن هؤلاء السبعة إذا سافر أحدهم عن موضع: ترك موضعَه جسدًا على صورته؛ بحيث لا يعرف أحد أنه فُقِد، وهذا معنى "البدَل" عندهم. قلتُ: وهذا لَم يرد فى نقل صحيح أو ضعيف. وقيل: مرادهم بـ"البدل": أنهم بدل الأنبياء وخلفاؤهم.

---

(١) انظر: لطائف المنن، لابن عطاء الله، صـ ٦٦.

(٢) فتاوى شيخ الإسلام أبى يحيى زكريا الأنصارى، صـ ٤٧٩، مكتبة الإيمان بالعجوزة.

(٣) انظر: إحكام الدلالة، جـ ١ صـ ٩١.

٦- النُّقباء: هم الذين استخرجوا خبايا النفوس، وهم ثلاثمائة.

٧- النُّجَباء([1]): هم المشغُولون بحَمل أثقال الخلق، وهم أربعون([2]).

وقيل فى عددهم وأماكنهم غير ذلك – كما سيأتى-.

وذهب بعض المحْدَثين([3]): إلى أن هذه الرتَب: تُشبه فى العصر الحديث رتَب الجيش؛ فـ"القطب الغوث": يُشبه القائد الأعلى، والإمامان([4]): كقائدَىْ المَيمنة والمَيسرَة، ثم باقى الرتب؛ كالأوتاد والأبدال وغيرهما: كالعقيد والنقيب فى الجيش.

ويوضح "الشيخ/ ابن حجر الهيتمى" هذه الرتب عند القوم([5]):

فالقطب الغوث: يدور فى آفاق الدنيا كما يدور الفَلك فى السماء، والله – تعالى- سَتر أحواله عن جميع الخلق غيرةً عليه، وهو من الأولياء: كالنقطة من الدائرة، به صلاح العالم. أما الأوتاد الأربعة: فلا يطَّلع عليهم

---

([1]) انظر: الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية، للدكتور/ عبد الفتاح بركة، جـ ٢ صـ ٢٧١-٢٧٦، مجمع البحوث الإسلامية، بدون تاريخ.

([2]) راجع: اصطلاحات الصوفية، لابن عربى، راجعها وعلق عليها: عبد الرحمن حسن محمود، صـ ١٠، ١١، نشر: مكتبة عالم الفكر، بدون تاريخ. وابن الفارض والحب الإلهى، د/ محمد مصطفى حلمى، صـ ٣٥٣، ٣٥٤، دار المعارف، ط ٢، بدون تاريخ.

([3]) هو الدكتور/ أبو الوفا التفتازانى؛ كما فى كتاب: أبو الحسن الشاذلى، صـ ١٩١.

([4]) يذهب الصوفية: إلى أن الإمامين: أحدهما عن يمين القطب، وثانيهما عن شماله، أحدهما ينظر فى الملك، والثانى ينظر فى الملكوت، وأحدهما يعقب القطب بعد وفاته. انظر: السابق نفسه، صـ ١٩٢.

([5]) انظر: الفتاوى الحديثية، لابن حجر الهيتمى، صـ ٢٣٠-٢٣٣، نشر: دار الفكر، بدون تاريخ. وذكر مثل هذا الكلام: الإمام السيوطى فى رسالته: (الخبر الدال ...) الآتى الإشارة إليها؛ وانظر: الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلانى، جـ ٣ صـ ١٧٠، نشر: دائرة المعارف العثمانية بالهند، الطبعة الثالثة، ١٣٩٢هـ-١٩٧٣م.

إلا الخاصة؛ أحدهم باليمن، وثانيهم بالشام، وثالثهم بالمشرق، ورابعهم بالمغرب. والأبدال: اختلف فى عددهم، فقيل ثلاثون، وقيل أربعون، وقيل أربعة عشر، وصحح القولَ: بأنهم سبعة. والنقباء: أربعون، والنجباء: ثلاثمائة، والقطب إذا مات: أبدل الله مكانه أحد خيار الأوتاد الأربعة، وإذا مات أحد الأربعة: أبدل الله مكانه أفضل واحد من الأبدال السبعة، وإذا مات أحد السبعة: أُبدل بخيار النقباء الأربعين، الذين إذا مات أحدهم أُبدل بخيار النجباء الثلاثمائة، الذين إذا مات أحدهم: أبدل بخير الصالحين؛ وهو – تعالى- يدفع البلاء عن عباده بهؤلاء المذكورين ويُنزل بهم المطر(١)، ثم يميتُهم قبل قيام الساعة.

يستفاد مما سبق: «أن للأولياء حكومة باطن، يرَون: أن عليها يتوقف نظام العالم، ورأس هذه الحكومة الأعلى يسمى: القطب، وهو أرفع صوفية عصره، وإليه رآسة الاجتماعات التى يعقدها فى انتظام مجلس شوراه الموقَّر، وأعضاء هذا المجلس: لا يعوقهم عن الحضور حواجز الزمان والمكان، وإنما يأتون من أرجاء الأرض فى لمحة طرف، يعبُرون البحار والجبال والصحارى فى يُسرٍ بالغ؛ كما يسير عوامُّ البشر فى السبيل الممهَّد. ودون القطب تقوم طبقات ودرجات مختلفة من الأولياء،... وهؤلاء جميعا: يعرف الواحد منهم الآخَر، ولا يعمل الواحد منهم إلا برِضَا الباقين، وعمل الأوتاد: الطواف حول الأرض جميعا كل ليلة، فإن كان هناك مكان لم تقع أعينهم عليه: بدت فيه فى اليوم الثانى شائبة نقص؛ فيخبرون القطب، حتى يجعل همَّه إلى ذلك المكان المشوب، فيبرأ مما

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى، للشعرانى، جـ ١ صـ ٩٥.

أصابه بفضل القطب»([1])!!

هذا خلاصة ما قيل عن هذه الرتب، لكن السؤال الآن: هل النقل – الصحيح – يؤيد القولَ بهذه الرتب؟ وكذا الأدلة العقلية، هل تؤيد القول بها أم تنفيه؟

أقول فى الجواب: إن لـ"الإمام السيوطى" رسالةً سماها: (الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال)([2])، نَسب فى هذه الرسالة القول بإنكار هذه الرتب: إلى أهل العناد ومَن لا علم له، وأن الحديث الصحيح ورد بالقول بالأبدال؛ ففى الحديث: (الأبدال [يكونون] بالشام، وهم أربعون رجلا، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا، يسقى بهم الغيث، وينتصر بهم على الأعداء، ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب)([3]).

---

([1]) الصوفية فى الإسلام، للدكتور/ ر. أ. نيكلسون، ترجمه وعلق عليه: نور الدين شريبة، صـ ١٢٠، نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢م.

([2]) نُشرت هذه الرسالة ضمن كتاب الإمام السيوطى المسمى: الحاوى فى الفتاوى، جـ ٢ صـ ٢٩١-٣٠٧، نشر: دار الفكر- بيروت، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م. وكذا ألّف الفقيه: "محمد أمين أفندى؛ الشهير بابن عابدين" رسالة سماها: إجابة الغوث ببيان حال النقباء والنجباء والأبدال والأوتاد والغوث. انظرها فى مجموعة رسائل ابن عابدين، جـ٢ ص٢٦٣-٢٨١.

([3]) الحديث: عزاه السيوطى: لمسند الإمام أحمد، وقال: «رجاله رجال الصحيح غير شريح ابن عبيد؛ وهو ثقة». قلتُ: الحديث: أخره الإمام أحمد فى المسند، جـ ٢ صـ ٢٣١ برقم ٨٩٦، من طريق: شريح بن عبيد عن على بن أبى طالبﷺ، وقال محقق المسند: «إسناده ضعيف؛ لانقطاعه؛ شريح بن عبيد: لم يدرك عليًّا،... وحديث الباب: باطل عن رسول الله ﷺ»، وأخرجه بلفظ آخر فى المسند أيضا، جـ ٣٧ صـ ٤١٣ برقم ٢٢٧٥١، وقال محقق المسند: «منكَر، وإسناده ضعيف». مسند الإمام/ أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، وآخرون، نشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى،

وذكر "السيوطى" آثارا أخرى فى عدد ومكان الأبدال والنجباء وغيرهم، واستدل "الشيخ ابن حجر الهيتمى" ببعضها فى فتاويه أيضا، منها:

قول سيدنا على بن أبى طالب ﷺ: (لا تسبُّوا أهل الشام؛ فإن فيهم الأبدال، وسُبُّوا ظَلَمتهم)(١).

وحديث: (لن تخلوَ الأرض من أربعين رجلا مثل خليل الرحمن، فبهم يُسقون وبهم يُنصرون، ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر)(٢).

---

١٤٢١هـ-٢٠٠١م. ونقل فى (فيض القدير. جـ ٣ صـ ١٦٩): أنه رُوى من طرق أكثر من عشرة. فيض القدير شرح الجامع الصغير، للشيخ/ عبد الرءوف المناوى، المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة الأولى، ١٣٥٦هـ. وذكره الهيثمى بلفظ مقارب، وقال: «رواه أحمد، ورجاله: رجال الصحيح غير شريح بن عبيد، وهو ثقة، وقد سمع من المقداد، وهو أقدم من علِيّ». مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لأبى الحسن نور الدين على الهيثمى، تحقيق: حسام الدين القدسى، جـ ١٠ صـ٦٢. نشر: مكتبة القدسى- القاهرة، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

(١) عزاه السيوطى: للحاكم فى المستدرك، وقال: صحيح، وأقره الذهبى فى مختصره، ثم ذكر السيوطى له طرقا أخرى. قلت: أخرجه الحاكم من طريق على بن أبى طالب ﷺ، فى المستدرك، جـ ٤ صـ ٥٦٩ برقم ٨٦٥٨، ولفظه: (لا تسبوا أهل الشام، وسُبّوا ظلمتهم، فإن فيهم الأبدال)، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وأقره الإمام الذهبى. وعزاه الهيثمى – بلفظ مقارب - من طريق على بن أبى طالب أيضا: للطبرانى فى الأوسط، وقال: «وفيه ابن لهيعة، وهو ليّن، وبقية رجاله ثقات». مجمع الزوائد، جـ ٧ صـ ٣١٧. وعزاه الهيثمى أيضا – بلفظ مقارب – من طريق شهر بن حوشب: للطبرانى، وقال: «وفيه: عمرو ابن واقد، وقد ضعَّفه جمهور الأئمة، ووثقه: محمد بن المبارك الصورى. و"شهر": اختلفوا فيه، وبقية رجاله: ثقات». مجمع الزوائد، ج١٠ ص٦٣. وانظر: المقاصد الحسنة، ص ٤٥.

(٢) الحديث: عزاه السيوطى: للطبرانى فى الأوسط وقال: «قال الحافظ أبو الحسن الهيثمى

وحديث: (خيار أمتى فى كل قرن خمسمائة، والأبدال أربعون، فلا الخمسمائة ينقصون ولا الأربعون، كلما مات رجل أبدل الله من الخمسمائة مكانه، وأدخل من الأربعين مكانه، قالوا: يا رسول الله دلنا على أعمالهم، قال: يَعفُون عمن ظلمهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، ويتواسون فيما آتاهم الله)(١).

وسلك الشيخ ابن حجر الهيتمى مسلكا آخر فى الاستدلال على وجودهم عزاه لبعض المحدِّثين(٢)؛ وهو الاستدلال على وجود القطب بحديث:

(إن لله – تعالى- في كل بدعةٍ كيد بها الإسلام وأهله وليًّا صالحا يذب عنه ويتكلم بعلاماته فاغتنموا حضور تلك المجالس بالذب عن الضعفاء وتوكلوا على الله وكفى بالله وكيلا)(٣).

---

فى مجمع الزوائد: إسناده حسن». وانظر: مجمع الزوائد، ج١٠ ص٦٣. قلت: الحديث المذكور: ذكره الحافظ الذهبى بلفظ: (لن تخلو الأرض من ثلاثين...)، وقال عنه: كَذِب. سير أعلام النبلاء. جـ ١٢ صـ ٥٣٢، وحكم السخاوى: بضعفه. انظر: المقاصد الحسنة، ص٤٣، ٤٤.

(١) عزاه ابن حجر الهيتمى – بنحوه -: لأبى نعيم، وعزاه السيوطى: لأبى نعيم وتمام وابن عساكر، وساق السيوطى له طرقا أخرى. قلت: رواه أبو نعيم فى حلية الأولياء، جـ ١ صـ ٨. ونقل فى (فيض القدير، جـ ٣ صـ ٤٦١): أن فيه راويان لا يُعرفان، وأن الخبر: كذِب فى حق الأبدال، وأن ابن الجوزى: حكم بوضعه، ووافقه السيوطى.

(٢) وهو مسلك الإمام السيوطى أيضا؛ فى كتابه: الدر المنثور فى التفسير بالمأثور، جـ ١ صـ ٧٦٥، نشر: دار الفكر- بيروت، ١٩٩٣م.

(٣) الحديث: عزاه ابن حجر الهيتمى: لأبى نعيم. قلت: رواه أبو نعيم – بلفظ مقارب - فى حلية الأولياء، جـ ١٣ صـ ٤٠٠. وذكر الحافظ ابن حجر العسقلانى: أن فيه راوٍ مجهول، حديثه غير محفوظ؛ وذلك فى كتابه: لسان الميزان، جـ ٤ صـ ٤٣، نشر: مؤسسة

وحديث: (يُبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدِّد لها أمر دينها)(١).

واستدل على وجود القطب وغيره من المذكورين بحديث: (فى كل قرن من أمتى سابقون)(٢).

واستدل – ابن حجر الهيتمى - بأحاديث عامة من هذا القبيل، لا تشتمل على ذكر أسماءٍ لهؤلاء المذكورين - كالأحاديث السابقة -، وذكر: أن أئمة العلم من الفقهاء والمحدِّثين والمجتهدين: بلَغوا المراتبَ المذكورة، ومن أمثلة ذلك: أنه نُقل الاتفاق على أن "الإمام الشافعىَّ" كان من الأوتاد.

وأقول: ولم يقصدوا بـ(الأوتاد) المعنى المذكور عن الصوفية سابقا.

*** التعقيب:**

لقد تُعقِّب الصوفية فى قولهم هذا: بأنهم أسسوا مملكةً باطنيَّةً على غرار مملكة الظاهر، وأن نظام العالم يتوقف على هذه الحكومة، وخلع الصوفية على أتباعهم الرتب والوظائف تعويضا لما فقدوه من حرمان حينما زهَّدوهم فى الدنيا ومناصبها، وأن الصوفية تأثروا فى قولهم بهذه الرتب والوظائف: بفكر الشيعة؛ فقد جعلوا من الأئمة مركز الدنيا والدين

---

الأعظمى- بيروت، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.

(١) الحديث: عزاه السخاوى: لأبى داود فى سننه، وللطبرانى فى الأوسط، وقال: «سنده صحيح، ورجاله كلهم ثقات». المقاصد الحسنة، ص٢٠٣.

(٢) الحديث: عزاه ابن حجر الهيتمى: للترمذى الحكيم ولأبى نعيم. قلتُ: رواه أبو نعيم فى حلية الأولياء، جـ١ صـ٨. ونقل فى (فيض القدير، جـ ٥ صـ٢٨٨): أن فيه راوٍ ضعيف، ونقل فى (فيض القدير أيضا. جـ ٤ صـ ٤٥٨) عن الحكيم الترمذى: أن المراد بهم: البدلاء، ونقل عن شرح الحِكَم: أن المراد: الداعى المجدِّد المبعوث على رأس كل مائة سنة.

وأمان أهل الأرض، ومن الاعتقاد الصوفيّ: أن لله – تعالى- عبادًا اصطفاهم وجعلهم فى المحل الأعلى من عنايته؛ فالقول بالقطب بالمعنى الحسيّ: هو عين قول "الرافضة"، والقول بترتيب الأبدال بعد هذا القطب: هو كقول الشيعة بترتيب النقباء بعد الإمام(١).

هذا حاصل النقد الموجَّه إلى الصوفية فى قولهم بهذه الرتب على هذا الوجه.

وحقق بعض الباحثين(٢): أن من أشهر ترتيبات الإمامة عند الإسماعيلية: أن للإمام أربعة دعاة يحيطون به، يليهم: النقباء الاثنى عشر، لكل نقيب ثلاثون بابا، لكل واحد من الثلاثين: اثنى عشر،... إلى آخره. وبهذا يظهر وجه الشبه بين التنظيمَين.

لكن لبعض الصوفية(٣) أيضا تحقيقٌ فى المسألة؛ إذ ينفى كونَ هذا

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون، جـ ٣ صـ ٩٩٨، الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية، جـ ٢ صـ ٥٢، الحياة الروحية فى الإسلام، صـ ١٣٨. والشيعة: فرقة نشأت بعد مقتل الإمام الحسين ﷺ، وأيَّدوا الإمام علىَّ بن أبى طالب ﷺ وقدَّموه على سائر الصحابة، ورأوا: أحقيته فى الخلافة دون سائر الصحابة، والرافضة منهم؛ ويسمون: الإمامية، والاثنى عشرية: يرون أن الخلافة لا تكون إلا فى أولاد الإمام عليٍّ (مِن فاطمة فقط) مِن بعده، ورفضوا خلافة: أبى بكر وعمر وعثمان ﷺ، ويقدسون الأئمة وينزهونهم، وقالوا بانتقال الملك بين أبنائهم عن طريق الوصية الدينية. انظر: الملل والنحل، للشهرستانى، جـ ١ صـ ١٤٦ وما بعدها، نشر: الحلبى. وبحوث فى الفرق الإسلامية، للدكتور/ محمد الأنور حامد عيسى، صـ ٥ وما بعدها.

(٢) هو: الدكتور/ محمد عمر محمد حسن؛ فى بحثه: الإسماعيلية أصولها وتطورها، صـ ٧٧-١٠٧، رسالة ماجستير مخطوطة بمكتبة كلية أصول الدين بالقاهرة، سنة ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، رقم ٤٨٠.

(٣) هو: الدكتور/ محمد أحمد مصطفى؛ فى كتابه: الرمزية عند ابن عربى، ص ٤٠٨-٤١٧، رسالة دكتوراة مخطوطة بمكتبة كلية أصول الدين بالقاهرة، سنة ١٣٥٩هـ-

التنظيم الصوفيّ هو هو بعينه التنظيمُ الشِّيعيُّ؛ وأذكر رأيه فى ذلك باختصار:-

**فالقطب:** يقابله فى التنظيم الشيعى: الإمام، وهو عند الشيعة يمثل القمة فى العلم بالله الذى لا ينتهى، أما الصوفية: فيرون أنه من الجائز وجود من هو أكبر منه فى العلم بالله – تعالى-.

و**الإمامان:** إذا أردنا أن نجد ما يشبههما فى التنظيم الشيعى فلن نجد؛ لأن الذى يلى الإمام عند الشيعة: هو الباب.

و**الأوتاد:** يقابلهم فى التنظيم الشيعى: داعى الدعاة، ووظيفته: أنه المسئول مباشرة أمام الإمام عن كل ما يتعلق بالداعين، وهى وظيفة سياسيّة بحتة، لا تشبه وظيفة الأوتاد.

و**الأبدال:** هم: القطب والإمامان والأوتاد الأربعة، لا يمكن القول بأن مقابلهم من التنظيم الشيعى: هو الأئمة السبعة عند بعض فرق الشيعة؛ لأنهم عند الشيعة: أئمة، والإمامة عندهم أدوار، الدور يتمُّ بسبعة، فالمقابل للأبدال عند الشيعة: هو داعى البلاغ؛ الذى تكمن وظيفته فى تبليغ الأوامر السرية التى يرسلها داعى الدعاة إلى موطن الدعوة، وهو مسئول عن الأسرار التى تصله، وهى أيضا سمة سياسية بَحتة.

و**النقباء** الاثنى عشر: قد يقال: يقابلهم فى التنظيم الشيعى: الحُجج الاثنى عشر، وهو تنظيم دعائىٌّ بَحت، لا شبه بينه وبين ما عند الصوفية.

وقد يُستأنس للقول بهؤلاء النقباء، الذين أُعطوا قدرة على تحصيل علوم الشرائع المنزَّلة بصورة كاملة واستخراج خبايا النفوس: بالقدرة الخارقة لأصحاب الأثر المصريين.

---

١٩٧٥م، رقم ٢٥٠٢، ٤٤٠٠.

**والنجباء:** لا نجد لهم مقابلا عند الشيعة.

ظهر مما سبق – وفقا لما استنتجه المرحوم الدكتور/ محمد أحمد مصطفى-: أن التنظيم الصوفىَّ ليس هو التنظيم الشيعىُّ بعينه، فهناك تفصيلات وأنواع لا نجد لها مثيلا عند الشيعة وتوجد عند الصوفية. كما أن السِّمة الأساسية للتنظيم الشيعى السِّرِىّ: أنه سياسىٌّ بَحت، بينما السمة الغالبة على التنظيم الصوفى: صلته الواضحة بالروح الإسلامية التى تعتمد على الروحانية، إضافة إلى الفروق الموجودة فى الوظائف بين التنظيمَين.

أما النصوص الواردة فى هذا التنظيم الصوفى: فهى – كما يرى "الدكتور/ محمد أحمد مصطفى" - وإن كانت لا تتناوله كله، إلا أنها تكفى فى اعتباره ككلٍّ ما دامت تؤيد بعضَ الوظائف المذكورة فيه والتى يشغلها المتصف بها، فهذه النصوص تجعلنا إن لم نحسم بوجود هذه الوظائف، فعلى الأقل نتوقف، أو نرجح جانب أصالتها، هذا حاصل رأيه.

أما أصل وجود هذه الرتب من الشرع: فغاية ما استدلوا به وقيل بصحته أو حُسْنه: هو الآثار الدالة على وجود الأبدال لا غير، بل إن من المحدِّثين من قال: إن خبر ثبوت الأبدال متواتر تواترا معنويًّا(١)، ولم أقف على أثر صحيح صريح فى الدلالة على ثبوت ما سوى الأبدال من الرتب المذكورة، والوقوف على أشهر الأحاديث التى استندوا إليها فى القول بهذه الرتب: قد ذكرته قريبا، وبالنظر إلى تخريج هذه الأحاديث المذكورة، ومعرفة درجة كل منها: يتبين ما فيها.

---

(١) انظر: المقاصد الحسنة. صـ ٤٥، ٤٦. كما ورد وصف المحدِّثين لبعض السابقين: أنه من (الأبدال)؛ انظر مثلا: سير أعلام النبلاء، جـ ٦ صـ ٣٧٦، جـ ٧ صـ ٢٧٤، ٤٤٧، جـ ٨ صـ ١٥٣، الدرر الكامنة، جـ ٣ صـ ٧٣، جـ ٦ صـ ٧٤. والتواتر المعنوىُّ: هو ما اختلفت ألفاظه ومعانيه، مع وجود معنًى كليٍّ فيما أخبر به المخبرون وقع الاتفاق عليه.

هذا عن موقف الشرع، أما موقف العقل من القول بهذه الرتب:

فهناك تحليل عقليٌّ لأحد المحققين(١)، يؤيد القولَ بهذه الرتب عند الصوفية، ويرى أن الدين والعلم والفلسفة تقول بأمثال ذلك، ويرى: أنها ليست من قبيل المستحيلات، ولا يترتب على وجودها مستحيل ولا خطأ عقَديٌّ؛ إذ يرى: أن الأرواح تتفاوت قوة وضعفا، وأن لها مقوّيات ومضعفات؛ تمامًا كالأجسام، وأن للأرواح نواميس وردت فى الشرائع، ويَعلَمها العلماء، وأن الله – تعالى- أعطى الأرواحَ القوية قدرةً على أفاعيل كبيرة، لا تقوى على فعلها الأرواح الضعيفة، وأفعال الأرواح لها نواميس تخالف نواميس أفعال الأجسام؛ يقرِّب ذلك: تأثير الحاسد فى المحسود بدون مجاورة ولا ملامسة، فنفس الحاسد قوية، لكنها شريرة، والفاعل الحقيقى: هو الله – تعالى-، وما الأجسام والأرواح إلا مظاهر يَظهر عليها ما أودعه الله فيها من قوًى مختلفة، فهى كالآلات التى خصصها صاحبها بخصائص مختلفة، فهذه الآلات إذا أظهرت مقتضياتها المرادة منها، فلا يقال حينئذ: إنها – الآلات - قد شاركت مخترعَها ومالكَها؛ إذ لو أراد مخترُعها أن يزوِّدها بقدرةٍ وإرادةٍ، لكانت هذه الآلة: هى الإنسان، وليس لهذه الآلة مع خالقها أدنى شرِكة، فهى مظاهر لقدرته – تعالى- وصُنعه، تُظهر ما أريد من خصائصها، وهى من أدلة قدرة خالقها؛ إذ لو شاء أبقاها، ولو شاء لأفناها، أو أحاطها بالموانع، أو أمدَّها بقوًى مختلفة، إلى آخره.

ومفاد ما ذُكر: أنه – تعالى- يعطى الأرواح قدرةً كالأجسام، بل قد

---

(١) هو: العلامة الشيخ/ يوسف الدجوى، فى كتابه: رسائل السلام ورسل الإسلام، صـ ٢٧١، نشر: دار الفرجانى - القاهرة. مع ملاحظة: أنه لم يصرح بأسماء هذه الرتب فى حديثه، بل شرَح حُكم الكلام عليها فقط.

تفوق قدرتُها قدرة الأجسام، ولا يسمَّى هذا شِركًا عند أيِّ عاقل.

كما أن حقيقة الإنسان: هى الرُّوح، إذ لا يفقد الناظر للناس بعد موتهم: إلا أجسامهم. وأفاعيل الأرواح: ثابتة لدَى أهل الملل، والديانات القديمة، وأيضا بالرغم من شيوع المادية فى الغرب، إلا أن للمذهب الروحانى عندهم أنصار وأتباع، «أما الروحانيون الكاملون من أولياء المسلمين وأكابرهم، فلا يضارعهم غيرهم من الأمم الأخرى، لا قوة ولا كثرة، وعندنا من المشاهَدات وروايات الثقات، ما لا يحصيه إلا الله – تعالى-، وفى كُتب الصحيح على عهد النبى ﷺ وعهد الصحابة ومَن بعدهم، شىء كثير من ذلك، فالمسألة: لا ينكرها الدين ولا العلم ولا الفلسفة»(١).

هذا حاصل تقرير هذا المحقق، ولا أجد وجهًا للاعتراض عليه؛ فالاطلاع - بدقةٍ - على الكُتب التى تناولت موضوع "أسرار الأرواح": لا يخلو من فائدة فى هذا المقام(٢).

وأخلُص إلى: أن أدلة النقل والعقل تؤيد القول بوجود الأولياء وكرامات الأولياء، وأنه – تعالى- هو الفاعل الحقيقىُّ للخوارق التى تظهر على أيديهم، فإن كان القول بالأقطاب وسائر الرُّتَب المذكورة من هذا القَبيل: فلا مانع من القول بهم، على أنهم من الأولياء، وأن الخوارق التى تظهر على أيديهم لا تعدُو أن تكون من كرامات الأولياء.

أما انفراد "الإمام الكتانى" بتعيين عددهم وأماكنهم: فهو اجتهاد منه، سيما أن كثيرًا من أمور الصوفية يصعُب الحكم عليها بمقياس العلوم

---

(١) رسائل السلام ورسل الإسلام، صـ ٢٧٦.

(٢) انظر مثلا: كتاب أسرار الروح، للأستاذ/ عبد الرازق نوفل، صـ ١٠١، ١٢٤، ١٣٨، ١٤٦، الطبعة الثالثة، بدون تاريخ، نشر: المركز الثقافى العربى للنشر والتوزيع. والمطالب القدسية فى أحكام الروح وآثارها الكونية، صـ ٨٠، ٨٦، ١٢١، ١٤٥.

الظاهرة؛ لاختلاف آلة الحُكم عند الصوفى وغيره، فنقول: ما وافقَ الشرعَ: فهو مقبول، وما خالفه: فهو مردود؛ أخذًا بظاهر الشريعة.

بقى أن أشير: إلى أن بعض الباحثين(١) زعم أنه لم يجرؤ أحد أن يخلع على نفسه لقب (الغوث) قبل الكتانى، الذى تجرأ على ذلك. مع أن الكتانى لم يصرح بأنه هو الغوث، إنما استبط الباحث ذلك: من تعيين الكتانى مكة مكانًا للغوث، ثم مجاورة الكتانى للحرم بمكة حتى وفاته، طمعا فى حمل هذا اللقب!!

ولا أجدنى فى حاجة إلى تكرار الرد عليه، بعدما رددتُ عليه من أقوال الكتانى نفسه سابقا؛ أثناء زعمه طمع الكتانى فى مرتبة الولاية، مع أن هذا الباحث – مشكورا – صرح بأن اتجاه الكتانى: سُنىٌّ، لا شيعىّ، لكنه لَم يوفِّ المسألةَ حقَّها، ووُجد فى عرضه لها بعض غموض، وعدم تناسق الكلام(٢).

## الخَضِر:

غالبا ما يظهر الكلام على (الخَضِر) والاختلاف فى شأنه، عند الكلام على الأولياء ومراتبهم، وقد سبق تصريح الكتانى برؤية الخضر. وحكى "الجامى": سؤال الكتانى لشيخه "إبراهيم الخواص" عما رآه فى البادية، فذكر "الخواص": أنه رأى الخضر، وأن الخضر طلب من "الخواص" أن يَقبله صاحبًا، فأبى "الخواص" صحبتَه.

واختُلف فى شأنه: هل هو نبىٌّ؟ أم ولىٌّ؟ وممن قال بولايته: الإمام القشيرى، ويقول "الحافظ ابن حجر" عن الخضر: «غالب أخباره مع

---

(١) هو: الدكتور/ محمد جلال شرف، فى كتابه: دراسات فى التصوف الإسلامى، صـ ٣٥٢، ٣٥٣.

(٢) راجع: السابق نفسه، صـ ٣٥٢-٣٦٨.

موسى: هى الدالة على تصحيح قول من قال: إنه كان نبيا،... وقال "القرطبى": هو نبىٌّ عند الجمهور، والآية تشهد بذلك؛ لأن النبى لا يتعلم ممن هو دونه، ولأن الحكم بالباطل: لا يطلع عليه إلا الأنبياء»(١).

وحياة الخضر وبقاؤه، أو موته، مما اختُلف فيه:

فـ"الإمام النووى" يحكى اتفاق الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة على حياته ورؤيتهم له واجتماعهم به، وشذَّ بإنكار ذلك: بعض المحدِّثين(٢).

وأذكر هنا خلاصة ما ذكره "الحافظ ابن حجر العسقلانى" عن أهم خلافٍ فى شأن الخضر؛ أعنى الخلافَ فى كونه قد مات أو مازال حيًّا(٣):

أما الآثار التى يستند إليها البعض فى القول بحياته: فقد تعقبها الحافظ ابن حجر، ليخلص إلى عدم صحتها(٤)؛ فيقول عن هذه الأخبار «وغالبها لا يخلو من عِلَّةٍ»(٥).

وللأمانة: فـ"الحافظ ابن حجر" يذكر: أنه وقف على بعض أخبار أسانيدها جيدة، تفيد: بقاء الخضر بعد النبى ﷺ(٦)، ويذكر: أن أصحَّ إسنادٍ

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة، للحافظ/ ابن حجر العسقلانى، ت: طه عبد الرءوف سعد، جـ ٢ صـ ٤٢٦، نشر: دار الغد العربى، بدون تاريخ، فتح البارى، جـ ٦ صـ ٤٣٤. وانظر: القشيرية وإحكام الدلالة، جـ ٤ صـ ١١٦، ١٦١، ١٧٤، ١٨٤.

(٢) راجع: شرح النووى على صحيح الإمام مسلم، جـ ١٥ صـ ١٣٥-١٣٦. ثم انظر: فتح البارى، جـ ٦ صـ ٤٣٤، ٤٣٥، والفتاوى الحديثية، صـ ٣٧، ١٢٨، ٢١٨، ٢٣١، أبو الحسن الشاذلى، لعلى سالم عمار، جـ ١ صـ ٢٠٠-٢١١.

(٣) وراجع أيضا: موسى والخضر، لمحمود المراكبى، صـ ١٧-٤٣، الطبعة الثانية، بدون.

(٤) انظر: الإصابة فى تمييز الصحابة، جـ ٢ صـ ٤٢٧-٤٨١.

(٥) السابق نفسه، جـ ٢ صـ ٤٤٠، وانظر: فتح البارى، جـ ٦ صـ ٤٣٤، ٤٣٥.

(٦) انظر: الإصابة فى تمييز الصحابة، جـ ٢ صـ ٤٦٣، ٤٧٦، ٤٧٨.

وقف عليه فى ذلك: هو اجتماع الخضر بعمر بن عبد العزيز[1]، وأن أحد مشايخه[2] كان يقول ببقاء الخضر، وأن أحد العلماء[3]: كان يدَّعى الاجتماع بالخضر.

وأما من قال بعدم حياته: فاستند إلى أحاديث لا خلاف فى صحتها؛ منها: قوله ﷺ: (أرأيتَكم ليلتكم هذه؟ فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد)[4]، وهذا الحديث: هو العمدة فى الاستدلال.

وأجاب عن هذا الحديث من قال بحياة الخضر: بأن الخضر «كان حينئذٍ على وجه البحر، أو هو مخصوص من الحديث؛ كما خُصَّ منه إبليس بالاتفاق»[5].

كما استدل من قال بعدم حياته أيضا: بقوله ﷺ: (والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتَّبعنى)[6]؛ فهذا الحديث: يعنى أنه إذا

---

(1) وحقق د/ المراكبى: أنه أثر ضعيف. انظر: موسى والخضر، صـ ٣٧، ٣٨.

(2) هو: الحافظ/ أبو الفضل العراقى. انظر: الإصابة فى تمييز الصحابة، جـ ٢ صـ ٤٨١.

(3) هو: القاضى/ علم الدين البساطى؛ الذى ولى قضاء المالكية. انظر: نفس الصفحة السابقة.

(4) الحديث: أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه، جـ ١ صـ ٢١١، كتاب: العلم- باب: السمر فى العلم.

(5) فتح البارى، جـ ٦ صـ ٤٣٤. مع ملاحظة: أن إبليس خُص بإمهال الله – تعالى- له بنصِّ القرآن، لا الحديث؛ قال – تعالى- عن إبليس: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨ ﴾. سورة: (الحجر)، الآيات (٣٦، ٣٧، ٣٨).

(6) الحديث: أخرجه الإمام أحمد فى مسنده، جـ ٢٣ صـ ٣٤٩ رقم ١٥١٥٦، وقال محقق الكتاب: إسناد ضعيف، وذكر الحافظ ابن حجر طُرُق هذا الحديث، وحكم بضَعفها، ثم قال: «وهذه جميع طرق هذا الحديث، وهى وإن لم يكن فيها ما يُحتجّ به: لكن مجموعها

كان هذا فى حق سيدنا موسى ﷺ، فكيف لم يأت الخضر سيدنا محمدًا ﷺ، فيشهد معه الجمعة والجماعات ويجاهد تحت رايته!!

وعرْض أدلة الفريقَين: مما يطول جلْبُه، وأنقل هنا كلاما جامعا اطلعتُ عليه فى ذلك؛ فـ «الأخبار الصحيحة النبوية، والمقدمات الراجحة العقلية: تساعد القائلين بوفاته ﷺ،... ولا مقتضى للعدول عن ظواهر تلك الأخبار إلا: مراعاة ظواهر الحكايات المروية، والله – تعالى- أعلم بصحتها عن بعض الصالحين الأخيار،... ثم إنك إن اعتبرتَ مثل هذه الأقوال وتلقيتَها بالقبول لمجرد جلالة قائلها وحسن الظن فيه: فقُل بحياة الخضر ﷺ إلى يوم القيامة، وإن لم تعتبر ذلك وجعلت الدليل وجودا وعدما مدارًا للقبول والرد، ولم تغرَّك جلالة القائل – إذ كل أحد يؤخَذ من قوله ويُرَدُّ، ماعدا رسول الله ﷺ-،... فاستفت قلبك بعد الوقوف على أدلة الطرفَين ومالَها وما عليها، ثم اعمل بما يفتيك،... ما يرده الدليل الشرعيُّ أو العقليُّ: لا يُقبَل»(١).

---

يقتضى: أن لها أصلا». فتح البارى، جـ ١٣ صـ ٥٢٥، وانظره أيضا جـ ٦ صـ ٤٣٤، وانظر عن باقى الأدلة العقلية والنقلية: موسى والخضر، صـ ٥٩-٦٥.

(١) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم، للإمام الآلوسى، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، جـ ١٠ صـ ٥٢١، ٥٢٣، الطبعة الأولى، نشر: دار الغد العربى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م. وانظر: موسى والخضر، صـ ٦١، ٦٢.

## خاتمة البحث

وبعد هذه الرحلة مع شيخنا الكتانى، أخلص إلى:

أنه كان من العلماء العاملين، المجتهدين فى العلم ونشره، والداعين إلى الإسلام بأفعالهم وأقوالهم، وأن تصوفه تصوف سُنىٌّ مقتبَس من مشكاة الشرع، لَم يخرج عن الكتاب والسنة؛ أما القرآن الكريم: فكانت تُعدُّ له ختمات بالليل والنهار، وأما السنة النبوية: فكان من العاملين بها، والداعين إليها، وأما أركان الإسلام: فقد قام بها خيرَ قيام؛ فكان قائما بالليل، مجاورًا بالحرم، صائما بالنهار، منفقًا من ماله، الذى اكتسبه من الحلال، حريصا على تحرى الحلال فى مطعمه وفى نفقاته، كثير السفر والسياحة فى الأرض مع رفاقه من الصالحين، متجنبا لغو الناس ولغطهم، وداعيًا إلى الإكثار من العمل الصالح، وعدم الاغترار بثواب هذا العمل والعجب به، بل الواجب تحرِّى العامل الإخلاص فى عمله؛ فإذا أتقن ذلك: نال الولاية هبةً ومنحةً منه – تعالى-.

وبحقٍّ تعدُّ أقوال الكتانى دُررًا يجب تعلمها وتعليمها؛ لتكون نبراسًا يستضىء به سالك التصوف كطريق إلى الله – تعالى-، ولتكون ردًّا على الإفك والافتراء على التصوف الإسلامى، أنه خارج عن الشرع، أو متأثر بالفلسفات الوثنية، أو بمذاهب الشيعة الغلاة، المخالفة للإسلام مخالفةً صريحة.

وبحسبى أنِّى قد اجتهدت، وبذلتُ قصارى جهدى فى تتبُّع أقوال الإمام الكتانى من مصادرها، والجمع بينها على هذا النحو؛ لأخرج بصورةٍ واضحةٍ كاملة – قدر الإمكان – توضح ملامح ومعالم الطريق

الصوفى عند هذا العالِم العامل الكبير، راجيًا منه – تعالى- أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم.

## أهم مصادر البحث ومراجعه


١- القرآن الكريم

٢- أبحاث في التصوف، للدكتور/ عبد الحليم محمود، (مع المنقذ من الضلال، للإمام/ الغزالى)، نشر: دار الكتب الحديثة، الطبعة الثامنة، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

٣- إحياء علوم الدين، للإمام/ أبى حامد محمد محمد الغزالى، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، بدون تاريخ.

٤- أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد، لمحمد بن المنور بن أبى سعيد الميهنى، ترجمة: إسعاد عبد الهادى قنديل، نشر: الدار المصرية للتأليف والترجمة، بدون تاريخ.

٥- الإسلام والعقل، للمرحوم الدكتور/ عبد الحليم محمود، دار المعارف، الطبعة الرابعة، بدون تاريخ.

٦- الإصابة فى تمييز الصحابة، للحافظ/ ابن حجر العسقلانى، ت: طه عبد الرءوف سعد، نشر: دار الغد العربى، بدون تاريخ.

٧- الأنوار القدسية فى معرفة آداب العبودية، لعبد الوهاب الشعرانى، دراسة وتحقيق: د/ رمضان بسطاويسى محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.

٨- الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية، للشعرانى، نشر: دار جوامع الكلم، الطبعة الثالثة، بدون تاريخ.

٩- تاريخ بغداد وذيوله، للخطيب البغدادى، ت: عبد القادر أحمد عطا، نشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

١٠- تاريخ دمشق، لأبى القاسم علىّ بن الحسن المعروف بابن عساكر، ت: عمرو بن غرامة العمروى، نشر: دار الفكر، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

١١- تذكرة الأولياء، لفريد الدين العطار، تصحيح: أحمد آرام، بدون.

١٢- التعرف لمذهب أهل التصوف، لأبى بكر الكلاباذى، تقديم وتحقيق: محمود أمين النواوى، نشر: مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

١٣- تلبيس إبليس، لابن الجوزى، دار الفكر- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

١٤- التنزلات الليلية فى الأحكام الإلهية، للشيخ الأكبر/ محيى الدين بن عربى، قدم لها وعلق عليها: عبد الرحمن حسن محمود، نشر: عالم الفكر، بدون تاريخ.

١٤- ثلاث رسائل فى المعرفة، للإمام/ الغزالى، تحقيق وتقديم وتعليق: د/ محمود حمدى زقزوق، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م. مطبعة الأزهر.

١٥- أبو الحسن الشاذلى، لعلى سالم عمار، مطبعة دار التأليف، الطبعة الأولى، ١٩٥١م.

١٦- الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية، للدكتور/ عبد الفتاح بركة، مجمع البحوث الإسلامية، بدون تاريخ.

١٧- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهانى، نشر: السعادة بمصر، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

١٨- الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال، للإمام السيوطى، ضمن كتابه: الحاوى فى الفتاوى، نشر: دار الفكر- بيروت، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

١٩- دراسات فى التصوف الإسلامى شخصيات ومذاهب، للدكتور/ محمد جلال شرف، نشر: دار المعرفة الجامعية بالاسكندرية، ٢٠٠٤م.

٢٠- رسائل السلام ورسل الإسلام، للأستاذ الشيخ/ يوسف الدجوى، نشر: دار الفرجانى - القاهرة.

٢١- الرسالة القشيرية، للقشيرى، مع إحكام الدلالة على تحرير الرسالة، لشيخ الإسلام زكريا الأنصارى، ونتائج الأفكار القدسية، لشيخ الإسلام/ مصطفى العروسى، نشر: مكتبة الإيمان- بدون تاريخ.

٢٢- الزهد الكبير، لأبى بكر البيهقى، ت: عامر أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية- بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م.

٢٣- سنن الترمذى، بتحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م، مطبعة مصطفى البابى الحلبى.

٢٤- سير أعلام النبلاء، لشمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد الذهبى، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، نشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٢٥- شرح شطرنج العارفين المنسوب إلى الشيخ الأكبر؛ المسمى: أنيس الخائقين وسمير العاكفين فى شرح شطرنج العارفين، لمحمد بن الهاشمى بن عبد الرحمن الحسنى التلمسانى ثم الدمشقى، بدون.

٢٦- شرح معالم أصول الدين، لشرف الدين ابن التلمسانى، تقديم وتحقيق وتعليق: د/ عواد محمود عواد، نشر: المكتبة الأزهرية للتراث، والجزيرة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

٢٧- شرح منازل السائرين، لزين الدين محمد عبد الرءوف المناوى، ت: د/ محمد عبد القادر نصار، وأحمد إبراهيم عبد الحميد، صـ ٥٣، نشر: دار

الكرز، والدار الجودية بالقاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

٢٨- صحيح الإمام البخارى، مع: فتح البارى شرح صحيح البخارى. للحافظ/ أحمد بن على بن حجر؛ أبى الفضل العسقلانى. رقّم كتبه وأبوابه وأحاديث: محمد فؤاد عبد الباقى. نشر: دار المعرفة- بيروت، ١٣٧٩هـ.

٢٩- صحيح الإمام مسلم، ومعه: شرح الإمام النووى، نشر: دار إحياء التراث العربى– بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

٣٠- اصطلاحات الصوفية، لابن عربى، راجعها وعلق عليها: عبد الرحمن حسن محمود، نشر: مكتبة عالم الفكر، بدون تاريخ.

٣١- صفة الصفوة، لجمال الدين أبى الفرج بن الجوزى، ت: أحمد بن على، نشر: دار الحديث بالقاهرة، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٣٢- طبقات الأولياء، لسراج الدين أبى حفص عمر ابن الملقن، ت: نور الدين شريبة، مكتبة الخانجى بالقاهرة، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

٣٣- الطبقات الصوفية، لأبى عبد الرحمن السلمى، تحقيق: د/ أحمد الشرباصى، كتاب الشعب، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٣٤- طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين عبد الوهاب السبكى، تحقيق: د/ محمود محمد الطناحى، د/ عبد الفتاح محمد الحلو، نشر: هجر للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

٣٥- الطبقات الكبرى؛ المسماة: لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار، المطبعة العامرة الشرفية بمصر، ١٣١٥هـ.

٣٦- الطريق إلى الله "كتاب: الصدق"، لأبى سعيد الخراز، ت: الإمام/ عبد الحليم محمود، نشر: دار المعارف، الطبعة الرابعة، بدون تاريخ.

٣٧- الاعتصام، للعلامة/ أبى إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبى، الهيئة

المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩م.

٣٨- عقيدتنا، للأستاذ الدكتور/ محمد ربيع جوهرى، الطبعة العاشرة، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٣٩- علم التصوف، للمرحوم الدكتور/ محمد مصطفى، نشر: مكتبة الفتح بدمياط، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.

٤٠- عوارف المعارف، لشهاب الدين السهروردى، نشر: دار الكتب العلمية، مع كتاب: إحياء علوم الدين.

٤١- ابن الفارض والحب الإلهى، د/ محمد مصطفى حلمى، دار المعارف، ط ٢.

٤٢- الفتاوى الحديثية. لشهاب الدين ابن حجر الهيتمى؛ أحمد بن محمد بن على. نشر: دار الفكر. بدون تاريخ.

٤٣- الفتوة، لأبى عبد الرحمن السلمى، ت: د/ إحسان الثامرى، ود/ محمد القدحات، دار الرازى بالأردن، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

٤٤- الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية، لأحمد بن محمد بن عجيبة الحسنى، ت: عبد الرحمن حسن محمود، نشر: عالم الفكر، بدون تاريخ.

٤٥- فيض القدير شرح الجامع الصغير، للشيخ/ عبد الرءوف المناوى، المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة الأولى، ١٣٥٦هـ.

٤٦- كشف المحجوب، لأبى الحسن على بن إسماعيل الهجويرى، دراسة وترجمة وتعليق: د/ إسعاد عبد الهادي قنديل، نشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، جـ ١ ١٤١٥هـ-١٩٩٤م. وجـ ٢ سنة ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

٤٧- الكواكب الدرية فى طبقات السادة الصوفية = طبقات المناوى الكبرى، للشيخ الإمام/ عبد الرءوف المناوى، حققها وقدم لها وعلق حواشيها:

دكتور/ عبد الحميد صالح حمدان، نشر: المكتبة الأزهرية للتراث. بدون تاريخ.
٤٨- لطائف المنن في مناقب الشيخ أبى العباس المرسى وشيخه الشاذلى أبى الحسن، للشيخ/ تاج الدين بن عطاء الله السكندرى، المكتبة السعيدية بدرب الجماميز، الطبعة الأولى، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.
٤٩- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لأبى الحسن نور الدين على الهيثمى، تحقيق: حسام الدين القدسى، نشر: مكتبة القدسى- القاهرة، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
٥٠- مختار الصحاح، للشيخ الإمام/ محمد بن أبى بكر الرازى، عُنى بترتيبه: محمود خاطر بك، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٣٤٠هـ-١٩٢٢م.
٥١- مفيد العلوم ومبيد الهموم، لأبى بكر الخوارزمى، نشر: المكتبة العصرية- بيروت- ١٤١٨هـ.
٥٢- المطالب القدسية فى أحكام الروح وآثارها الكونية، للشيخ/ محمد حسنين مخلوف العدوى، مطبعة المعاهد بالقاهرة، ومصطفى الحلبى، بدون تاريخ.
٥٣- المقدمة، لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ت: د/ على عبد الواحد وافى، نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ودار نهضة مصر، ٢٠٠٦م.
٥٤- الملامتية، لأبى عبد الرحمن السلمى، ت: أبو العلا عفيفى، منشورات الجمل- بيروت، وبغداد، ٢٠١٥م.
٥٥- موسى والخضر، لمحمود المراكبى، الطبعة الثانية، بدون.
٥٦- اللمع، لأبى النصر السراج الطوسى، تحقيق وتقديم: د/ عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقى سرور، نشر: دار الكتب الحديثة بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد، ١٣٨٠هـ-١٩٦٠م.
٥٧- مسند الإمام أحمد بن حنبل. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد،

وآخرون. نشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م

٥٨- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية، تحقيق: عماد عامر، نشر: دار الحديث بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٥٩- المقدمة فى التصوف، لأبى عبد الرحمن السلمى، تقديم وتحقيق: د/ يوسف زيدان، نشر: دار الجيل- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٦٠- نفحات الأنس من حضرات القدس، لمولانا أبى البركات عبد الرحمن الجامى، نشر: الأزهر الشريف، بدون تاريخ.

٦١- الوافى بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى، ت: أحمد الأناؤوط، وتركى مصطفى، نشر: دار إحياء التراث- بيروت، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

## فهرس الموضوعات


المقدمة ..... ٨٩٩
ترجمة الإمام الكتانى..... ٩٠٣
معالم الطريق الصوفى عند الإمام الكتانى..... ٩٠٤
أوَّلا: تعريف التصوف عند الإمام الكتانى ..... ٩٠٨
ثانيا: بعض خصائص الصوفية التى ذكرها الإمام الكتانى ..... ٩١٢
ثالثا: إشارت الإمام الكتانى فى العقيدة..... ٩١٤
رابعا: موقف الإمام الكتانى من العلم..... ٩١٧
موقفه من علم الحديث النبوى ..... ٩١٩
خامسا: أركان الطريق الصوفى عند الكتانى ..... ٩٢٤
دعوته إلى العمل وتحرّى الإخلاص فيه..... ٩٣٢
سادسا: مراحل الطريق الصوفـى: ..... ٩٣٨
مجاهـدة النفس..... ٩٣٨
التوبة – الزهـد – التوكُّل – الذِّكر - السماع..... ٩٤٢
سابعا: من ثمرات الطريق الصوفى عند الكتانى: ..... ٩٥٧
المعرفة:..... ٩٥٧
الفراسة – المكاشفة – المشاهدة – الشهود – المعاينة
الولاية – مراتب الأولياء – الخضر ..... ٩٦٥
التعقيب..... ٩٧٧
خاتمة البحث..... ٩٨٥
أهم مصادر البحث ومراجعه..... ٩٨٦
فهرس الموضوعات..... ٩٩٢

* * *